

أقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٣١]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : منى جامع

عفاف عزيز أباطة

أبي عزيز أباطة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحيها .

طه حسين

أبى عزيز أباطلة

تفتحت عيناى، ورأيتنى أعيش فى بيت أبى مع عمى أحمد
وعثمان، وشبت قلوبنا على حبهما؛ فقد كان أبى لهما أبا وأباً،
وكانت أمى ابنة عم وأختا وكان البيت سعيدا هادئا. نشأنا فى هذا
البيت، وسمعنا فيه أول ما سمعنا الشعر حتى قبل أن نسمع الكلام،
كنت أرى أبى جالسا بين أخويه وأعمامه جمال الدين أباطلة ومحمد
أباطلة، يقرأ عليهم بصوته الحنون.. مختاراته من الشعر القديم..
وكنا نهتز للشعر رغم أننا لم نكن نفهم منه ونحن فى هذه السن
حرفا، وقد ألفت آذاننا الشعر الجاهلى، والشعر الإسلامى فلم
نهبه عندما أوصلتنا إليه الأيام فى المدارس الثانوية .

ومازلت أراه وأسمعه يردد الأبيات الأثيرة عنده ومنها :

وإنى لتعرونى لذكراك روعة لها بين جلدى والعظام دبیب
وما هو إلا أن أراك فجاءة فأبھت حتى ما أكاد أجیب
وأعرض عن رأیى الذى كنت أرتأى
وأنسى الذى أعددت حين تغیب
ويظهر قلبى عذرها ويعینھا

على، فما لى فى الفؤاد نصیب

أو يروى :

أستغفر الله إلا من محبتكم
فإنها حسناتي حين القاه
فإن زعمت بأن الحب معصية
فالحب أجمل ما يعصى به الله
وللعلم ابن عبد الله :

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى
وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا
وما أحسن المصطاف والمتربعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها
عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
واذكر أيام الحمى ثم انثنى
على كبدى من خشية أن تصدعا
وليست عشيات الحمى برواجع
إليك ولكن .. خل عينيك تدمعا
ولعمر بن ربيعة :

ومظهرة لخلق الله ودا
وتلقى بالتحية والسلام
أتيت فؤادها أشكو إليه
فلم أخلص إليه من الزحام

فيا من ليس يكفيه محب

ولا ألفا محب كل عام

ولعروة بن أذينة :

إن التي زعمت فؤادك ملها

خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها

بلباقية فأدقها وأحلها

فإذا وجدت لها وساوس سلوة

شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

منعت تحيتها فقلت لصاحبي

ما كان أكثرها لنا وأقلها

فدنا وقال لعلها معذورة

من بعض رقبتها. فقلت لعلها

وللشاعر الأحوص :

أزور بيوتا لاصقات ببيتها

ونفسي في الدار التي لا أزورها

وله :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر

بأبياتكم ما درت حيث أدور

وللبحتري :

الله جارك فى انطلاقك

تلقاء شامك أو عراقك

لا تعذلى فى مسيرك

يوم سرت ولم ألاقك

إنى خشيت موافقا

للبين تسفح غرب مآقك

وحذرت ما يجد المودع

عند ضمك واعتناقك

فتركت ذلك عامدا

وخرجت أهرب من فراقك

كان أبى يردد شعر شوقى ويطلب منا أن نرده وراءه، وأن نحفظه.. فقد كان شديد الإعجاب بشوقى شديد التعصب له. وكان أخى فى سن السادسة يحفظ الكثير من مجنون ليلى، ويمثل دور المجنون أمام زينب صدقى التى اشتهرت بدور ليلى فى ذلك الحين وكانت تجاربه ضاحكة.

كان يجمعه بوهيب دوس المحامى الذائع الصيت حينئذ حب وصداقة وقوى أوامرهما إعجابهما العميق بشوقى. فلقد تمرن أبى بعد أن حصل على ليسانس الحقوق فى مكتب وهيب دوس..

ولم يشتغل أبى بالمحاماة وإنما نمت صداقة قوية بينه وبين أستاذه. وأذكر أن أبى كان يكلمه بلهجة كلها إجلالاً وتوقير حتى بعد أن علت سنه ولم يعد ذلك الشاب اليافع.

كانت تجمعنا «الربعمية» فى الصيف بأعمامى وأقاربنى محمد وهيام ورأفت وماهر وهو أصغر أعمامى ومنى سناً. وهو دمث الخلق عفيف النفس وكان هو المتفوق الوحيد بيننا، وهو الآن وكيل لوزارة الكهرباء. وكنا نقضى يومنا فى الاستماع إلى الفنوغراف وفى تأليف المسرحيات. أما الحوار فكان نؤلفه أثناء التمثيل، وكانت والدتى تأتى بمقرئ يشبه صوته إلى حد كبير صوت الشيخ محمد رفعت يسمى الشيخ السيد الجمل، وكان يقرأ السور الصغيرة بصوت دافئ ومازلت إلى الآن أشعر بحنين لطفولتى كلما سمعت هذه السور، وفى المساء يغنى الحاج عبده، وهو مغن يأتى به أبى ليقتضى معنا أجازة الصيف.. كنا نجتمع بعد العشاء كباراً وصغاراً لنستمع إلى الأدوار القديمة والقصائد التى كان يطلبها أبى وأذكر منها «وحتك أنت المنى والطلب» و «آنت يا نور العيون» وكنا نقاوم النوم حتى لا يرسلنا أهلنا إلى حجراننا، وكان أبى يشجعه ويستعيده.. فكان الحاج عبده يترك الغناء وينتفض واقفاً ويحيى بيديه حيناً ويعوده أحياناً ثم يستأنف الغناء وكأنه لم ينقطع عنه قط، ويعود أبى إلى مداعبته.. ويعود هو إلى الحركات المتتابعة التلقائية.

كنا فى الصيف نستأجر بالإسكندرية بيتاً جميلاً فى جليم، وكانت تزورنا فيه مغنية تعدت سن الشباب تسمى فاطمة العراقية وأذكر أننا كنا نخرج من البيت مساء ونمشى على الكورنيش والبحر يضرب الرصيف بأواجه، وتغنى فاطمة العراقية، بصوت ظل جميلاً - الأغاني القديمة إلى أن نصل إلى ستانلى لنزور عمى عبد الله فكرى أباطة بهذا الموكب.. والغريب أننى أذكر أن المارة كانوا قلة، وأذكر أن أحداً لم يتعجب من هذا المنظر.

ونعود بعد السهرة سيراً على الأقدام، ولكن أبى كان يحمل المتعب منا إذا غلبنا النوم أو أتعبنا المشى.

وكثيراً ما كنت أسمع أبى يلحن الأبيات التى تعجبه على جميع النغمات يرددها لنفسه وخصوصاً هذا البيت الذى لا يفارق ذهنى:

أما والذى أبكى وأضحك، والذى

أمات وأحيا، والذى أمره الأمر

وكبرنا وهذه الكلمات الجميلة ترن فى آذاننا والموسيقى والغناء تملأ حياتنا، وعرفنا أم كلثوم وكان لها مكانة خاصة فى بيتنا «فقد جمعت بينها وبين أبوى صداقة وحب.. ودعاها أبى فى كل مديرية عمل بها.. واستقبلها فى كل مرة استقبلاً حافلاً.. وكانت تعود من حفلها إلى بيتنا.. وتسهر معهم ولا أقول معنا حتى الصباح تغنى آخر أغانيها الجديدة.. وقبل نزولنا إلى المدارس فى الصباح كنا نسمع من أهل المنزل أخبار السهرة ونلحن النوم الذى حرمانا من غناء أم كلثوم.

وكلما نظرت الآن ورائي إلى البيت الذي كانت فيه أمي.. أراه
كالحلم الجميل كله شعر وحب ووفاق.

فقد كانت أمي حب وطفولة أبي وأمل شبابه، وتمكن هذا الحب
منهما حتى أحسنانه نحن، وكنا أطفالا لم نزل، وشعرنا به يملأ
بيتنا وحياتنا.

سافر أبي سنة ١٩٣٧ إلى أوروبا واصطحب معه أمي وبقينا نحن
في الريمانية، سافرا للعلاج ولحضور المعرض في باريس، ونشرت
إحدى المجلات صورتها مع إسماعيل باشا صدقي وهما عائدان
على لركب «اوزونيا» وكان أبي يحبه ويقدره.. وأذكر أن القيامة
قامت وقتذاك في أسرتنا، فقد ثار جدى لأمي وهو عم والدى لنشر
صورة ابنته في المجلات وقاطعهما. وأذكر أن أعمامهما بذلوا جهداً
كبيراً حتى صفح جدى عن هذا الإثم العظيم، وذهبت أمي إلى أبيها
تقبل يده ومعها أبي معتذراً خاشعاً.

وحين عين أبي مديراً للمنيا ذهبنا معه وانتظمتنا في المدارس هناك
وأذكر أن أختي أشارت علىّ مرة أن نقول لمدرسة الحساب التي
تأتى إلى البيت إن أبي يطلب منها أن تعطينا من الدرس في ذلك
اليوم وأن نقول لأبينا إن المدرسة قد أصابتها وعكة ولن نحضر،
ونغتتم الفرصة ونستأذن في الذهاب إلى السينما، وقد كان. وبعد أيام
ظهرت الكذبة، ولست أدري كيف؟ فهي كذبة صغيرة كان يمكن أن

تمر ولكنها لم تمر.. وغضب أبى وثار ومنعنا من الظهور أمامه أسبوعاً كاملاً، ولم يكتف بذلك وإنما طلب من ناظرة المدرسة أن تخبر زميلاتنا بما حدث فنفذت الناظرة الطلب بدقة.

وفى طاوور الصباح وأمام الجميع روت قصة التلميذتين الكاذبتين كما أسمتنا، ولن أنسى ما شعرت به من خجل وهوان ولست أدري علام كان كل هذا الغضب، فأولادنا اليوم يتعجبون إذا نحن احتججنا على هروبهم من الدرس أو من المدرسة نفسها، وهم والحق يقال لا يكذبون ولكن ليس تمسكا بالفضيلة وإنما لأنهم لا يحتاجون للكذب فهم لا يخافون شيئاً ولا يهابون أحداً. وإنى أفضل الكذب مع الاحترام على الصراحة مع الاستخفاف.. واللامبالاة.

كنا نقطع المسافة بين المنيا والقاهرة فى حوالى سبع ساعات فى السيارة، فكنا نتغلب على الملل بالمطارحة الشعرية، وكنا نتبارى فى حفظ الشعر حتى يمكننا أن نضيق الخناق على منافسنا. وأذكر أنه بعد سنوات من ذلك تقدم لأختى خطيب ووافقته عليه فقبله أبى ووعد وأعطى كلمته، ثم عادت أختى ورفضت الخطبة فأخرجت والدى، فتردد وانتابته الحيرة وبدأنا أمامه مطارحة.. وتعمدنا أن نقول من شعره فى قيس ولبنى.

مرنى أطعك فما عصيتك مرة

أبتاه لكن ما طلبت عظيم

والواقع أنه لم يطلب شيئاً وإنما نحن الذين طالبناه أن يرجع عن كلمته وأن يتراجع عن وعده.. ولا نكتفى بذلك بل نلومه أيضاً.

وكان يحلو لأبى فى المناسبات العائلية أن يطلب منى أن أقف فوق المدئدة وأن أخطب باللغة العربية، والآن يقول لى إختوى إننى كنت فى غاية ثقل الظل.. غير أن أبوى كانا سعيدين بى، وإن كنت أشك فى ذلك، فلا بد أنهما كانا يريان أيضاً رأى إختوى، ولكن لا يظهران، فالأطفال فى سن الثامنة يكونون فى قمة السخافة وثقل الظل.

وكما نحتفل بعيد زواج أبوى احتفالاً عائلياً، فإذا كنا فى الربعمائة دعونا الأقارب وقضينا اليوم فى الذهبية فى بحر موسى كما يسمونه هناك، ويجمال أبى المدعوين جميعاً ويشعر كل واحد منهم بأنه الضيف الوحيد، ويوزع عليهم الهدايا البسيطة ليشركهم معنا فى أعيادنا وإذا كنا فى المنيا وزع علينا نحن الهدايا وقضيناها معا سعداء فرحين.

ومن العجيب أن يكون أهل بيته جميعاً من غواة الشعر والأدب حتى جمال المشرف على شئون المنزل.. فقد اصطحبه أبى إلى المنيا وهو بن عامل التليفون فى الربعمائة وكانت إدارة البيت وظيفة ثانوية بالنسبة له، أما الوظيفة الأساسية فكانت حفظ الشعر وكان

يتكلم بالشعر ويعاتب بالشعر، ويعاكس بالشعر. أذكر أن ابنة خالتي كانت مخطوبة ويبدو أنها ضايقتة فى شىء يختص بعمله، فكان كلما رآها تصلى قال لها مداعباً:

صَلَّى وصام لأمر كان يطلبه

فلما انقضى الأمر لا صَلَّى ولا صاماً

وكان من المناظر الغريبة أن نرى جمالاً. المسئول عن نظافة المنزل. يزاول عمله وفى يده الشوقيات ولا أنس ذلك اليوم، كنا لانزال فى المنيا، وكنا نجلس مع أبى قبيل الغروب وإذا بصديق له يطلبه تليفونيا، ويرجوه فى اضطراب بأن يذهب إليه فوراً، فيذهب أبى مسرعاً ثم يتكلم بعد ساعات قاتلاً: إنه سيقضى الليلة مع صديقه هذا، وكان هذا الصديق قد طعن فى كرامته من أهل بيته، وفوجئ بحياته تتصدع ووجد نفسه وحيداً مع أولاده، لا يعرف ماذا يصنع بهم؟، ولا ماذا يصنع بكبريائه؟، فكبر عليه الأمر، واضطربت نفسه. وانهار الرجل، ولم يبق أبى معه ليلة واحدة كما كان مقدرًا، وإنما ظل ساهراً إلى جانبه عدة ليال، يحاول أن يشد من أزره، وأن يعيد إليه زمام أمره.

وفى المنيا أيضاً بدأ أبى رواية «قيس ولبنى» ولكنه بدأها تحت إلحاح ابن خالتي وكان تلميذاً فى المدرسة السعيدية، وهو الآن

رئيس سلاح الإشارة بالإسكندرية العميد شريف أباطة، يحب الشعر وكله رقة، وكانت تسانده في الإلحاح أخته تغريد وهي قارئة ممتازة وملمة بكل دقائق شئون المنزل وكان أبى يقول عنها «وما الذى لا تعرفه تغريد» وكما كان لها شأن فى تأليف «قيس ولبنى» كان لها الشأن فى ظهور هذا الكتاب.

وكانت أمى قد احتضنتهم بعد وفاة شقيقتها، ووجدوا فى أبى أبا وصديقا، وكنا كلما اجتمعنا بعد الغداء زاد الإلحاح من أبناء خالتي وكان جوابه دائما: «لنبدأ غدا» وتوالت الأيام ولا يأس من هنا ولا شعر من هناك حتى قالوا له فى آخر محاولة لهما: إن شوقى قد كلفك بكتابة «قيس ولبنى» فابدأ وإن أردت بعد ذلك ألا تكلمها فلك ما تشاء، فقال ضاحكا: هات قلما وورقة واكتب يا شريف.. وكانت بداية «قيس ولبنى».

أديرى علينا شهى السير

وقولى فقولك راح السمر

فديتك لبنى فهل عن هوى

حديث وهل عن محب خبر

لبنى : وما شأنكم بهوى العاشقين

كفاهم عذابهمو المستعر

دعوههم لنار تقعد الحديد
ولا عج شوق يذيب الحجر
يقومون يومهمو نزعاً
ويجمعهم ليلهم بالسهر
رثيت لهم في شقاواتهم
كأن حملوا سيئات البشر

ثم لا يمضى شهر إلا وقد تم جزء كبير من قيس ولبنى وهكذا بدأها مجاملاً ثم لم يجد نفسه إلا وقد أتى بالحسين خاطباً وشفيحاً لقيس لدى الحباب والد لبنى فيقبل الزواج ثم تجرى الأحداث إلى أن يدب الخلاف بينها وبين أهل زوجها ويتهمونها بالعمم ولا يحتمل قيس الصراع القائم في بيته فيمرض، ثم يخضع لرأى أبيه وأمه ويطلق لبنى، ويضرب قيس في الصحراء هائماً على وجهه، فيقابل مجنون ليلي ويشكو له همومه وآلامه.. ويهيب به أن يعيد إليه لبنى وكانت قد تزوجت.. فيحاول.. وينجح.. وكانت مسرحية قيس ولبنى هي أول مسرحية لأبى وهى عبارة عن مشاعر حلوة، وحب حان، ومشاكل تنساب يرشاقة إلى حلولها، وكذلك كانت حياته فى ذلك الوقت، وجمال الشعر حياتنا منذ طفولتنا الأولى وأضفى عليها نوعاً من الرومانسية الحاملة.

ومن المنيا نقل أبى محافظا لبورسعيد سنة ١٩٤٢ أثناء الحرب العالمية الثانية.. وكانت بورسعيد تضرب يومياً بالقنابل.. وتعرض

مبنى المحافظة حيث كنا نقيم - لقنبلة غير أنها لم تنفجر، ولم يشأ أبى أن تهاجر أسرته إلى الربعماية.. وإنما سمعته يقول: كيف أبعد أسرتي والزوجات والأطفال أمام عيني يملئون مدينة بورسعيد.. إن ما يجرى على أهل المدينة سوف يجرى علينا، وبقينا معه، واكتفينا بأن نقضى الليل فى المخبأ.. وكنت أذهب إلى المدرسة الابتدائية وكانت لاتبعد عن بيتنا إلا بمسافة كيلومتر واحد كنت أقطعه عند الضرورة سيراً على الأقدام فى ساعة أو أكثر، فقد كنت مع زميلاتى نتكلم ونضحك طوال الطريق ويمر الوقت دون أن نشعر، وكأننا لم نكن معاً منذ الساعة السابعة صباحاً وعندما أصل إلى باب البيت يكون قد فات على ميعاد رجوعى أكثر من ساعتين فكانت أمي تغلق على. ولما تكرر الأمر وضقت بى طلبت من أبى أن يرسل إلى ساعيا ليعود بى إلى البيت مباشرة، وكنت فى الثانية عشرة من عمرى ووجه الساعى إلى المدرسة فى الساعة الثانية ظهراً وكان رجلاً مسناً سمينا وقوراً.. وكان طربوشه يخفى الشعر الأبيض الذى يحدد رأسه وأصر الرجى أن يحمل عنى الحقيبة، وكانت كبيرة جداً لا أدرى لماذا وحاولت بكل قواى أن أثنيه فلم أفلح، لم أشأ أن يحملها عنى وهو فى سن جدى ولكنه تمسك باستماتة، وقبل أن أغادر المدرسة علمت من زميلاتى أنه جد واحدة من صديقاتى.. وسقط قلبى ولم أدر ماذا أفعل؟.. وفى اليوم التالى فكرت وقلت بنفسى «إننى سأنتظر حتى تنصرف جميع التلميذات من المدرسة حتى لاتراه حفيدته وهو يحمل

لى الحقيبه .. وفعلًا هذا ما حدث ولكن قبل أن أغادر المدرسة جاء من يخبرنى بأن حفيدته تبكى لأننى تركته ينتظرنى كثيراً أمام الباب. فحرت فى أمرى ووجدت أن هذه المشكلة تفوق احتمالى وعجزت تماماً عن إيجاد الحل الملائم.. ذهبت إلى أبى بخوف وتردد وخجل وقصصت عليه القصة ورجوته أن يقنع الساعى ألا يحمل الحقيبة.. فأجاب أبى بحده بل لا يذهب على الإطلاق «لماذا لم تقولى لى من أول يوم؟ لماذا تركته يحمل الحقيبة؟ لماذا تركته ينتظرك؟ لقد آلت صديقتك وسببت له الحرج» فأجبت إننى خفت أن أشكو من أول عليك أن تعودى فى مواعيدك حتى لا تقلقى أمك ولا تتسببى يوم فى إيلاام الناس، رحم أبى صديقتى ورحم مشاعرها ورحم الجد الذى أصر على أداء ما تصور أنه واجبه، وحلت المشكلة برفق وبإنسانية. وفى بورسعيد امتحنت أمى بموت شقيقها المهندس عبدالعزيز أباطة وهو فى شرح الشباب وكانت قد فقدت قبله شقيقين وشقيقة، فلم تحتمل هذه النكبات المتتابعة، وزحف إليها المرض، وثقل على قلبها السقم، وبدأنا منذ ذلك اليوم نعيش مع الخوف، ونحيا مع القلق، وظلت شهوراً أربعة هى التى عاشتها بعد أخيها.. تقاوم المرض والمرض يقاومها وتدافع الهموم والهموم تدافعها، يخرج طبيب لياتى طبيب، ثم نقلت إلى مستشفى القلب بالإسماعيلية، وكان مديره الدكتور جوديل الطبيب الفرنسى المشهور فى ذلك الوقت وكنت أرى أبى شاردا حزينا.. يخفى هلعه بين ضلوعه، وكنت كلما

خلوت إلى أمى أسندت رأسى إلى كتفها وبكيت دون أن أعرف سببا
لبكائى، إلى أن رأنى أبى مرة، وعنقنى على ذلك، فعجبت لتعنيفه،
ولكننى قدرت مشاعره، بل ورثيت له، ولكن بعد ذلك بسنوات.
وحيثما كانت تفاجئى أمى النوبة القلبية.. كان أبى يسارع إليها..
ويسند ظهرها على صدره ويعكس وجهه ماتلاقيه هى من آلام
وأوجاع، إلى أن انتزعها الموت يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٤٢ وهى بين
يديه، فاندك البيت علينا ولما أفقنا، وجدنا أبا ملتاعا، ووجد هو
أبناء ذاهلين.. ووصف هذا اليوم فى ديوانه.

دفعت صدرها إلى وألقت
رأسها عند راعد ذى خفوق
ثم قالت فى أنه تتهاوى
أزفت ساعة الفراق السحيق
لا ترع واحمل الفجيعة جلدا
لست للضعف عندها بخليق
وأشارت لطفلة تشهد الهول
بقلب دام وجفن غريق
قالت ارع الاولاد وابق كما كنت
مثال الأب المحب الرفيق
ومضت تنزع الحياة وتلقى
فى زفير آصارها وشهيق

فى سننى لامح وعرف ذكى
وابتسام عذب ووجه طليق
لو تراها تقول قد مسها البهر
فمالت إلى سبات رقيق
ووقفنا مروعين نجيل الطرف
بين التكذيب والتصديق
ثم عدنا للحق عانين صرعى
من مفيق يهذى وغير مفيق
ومنذ ذلك اليوم بدأ كل منا يبحث عن طريقه ويتخبط فى الدنيا دون
هداية الأم وحنانها، ولهفتها.
واندلعت النار من قلب أبى آهة مدوية هى «أنا حائرة» وكان
إهداؤه «إليها فى أكرم جوار» ومن الأبيات التى هزتنى دائما هذه
الأبيات التى يصف فيها أول زيارة إلى قبرها، وكنا نذهب معه إلى
هناك، فينتحى جانبا ويتحدث إليها فى همس، ولم يفارق هذا
المنظر مخيلتى، وكنت دائما أتساءل عما يقوله ولا أجد جوابا إلى أن
قرأت هذه الأبيات:

الزيارة الأولى:

دعانى لها الشوق الدخيل وهزنى
إلى المضجع الاسنى حنين مكرم

أفضت لها حتى إذا جئت شفنى
لهيب أواب يهيم ويحجم
فلا أنا أستطيع القبول فأثنى
ولا أنا أستطيع المثول فأقدم
ولما كففت الدمع إلا أقله
ونهنهت فى جنبى نارا تضرم
دخلت عليها فى وضوى وروعى
كما يدخل البيت المحرم محرم
وقفت يقص الدهر تاريخ غابر
من العمر والعمر ابتسام وأنعم
تمثلتها منضورة الحسن طفلة
يضئ الدجى منها جبين ومبسم
وطاوية عهد الدراسة كاعبا
تروعك فيها تضررة وتوسم
ومجلوة للعرس وضاعة السنى
تأود فى وشى الشباب وتنعم
وجامعة فى بيتها شمل بيتها
توسطهم كالبدر حفنة أنجم
فمحمولة منه إلى ساح مفضل
يقبل ويعفو عن كثير ويرحم

وقفت أناديها وأهتف باسمها
وألحف حتى أوشكت تتكلم
وقلت لها يا زين ما من فجيرة
تعاظمني إلا وفقدك أعظم
فأنت لعيني مذ تراءتك قرة
وأنت لنفسى مذ تمتلك توأم
وحبب فيك النفس عليا خلائق
إذا لم تحببها الوشائج والدم
سأكرم أكبادا تركت فإن أمت
فإن إله الناس بالناس أكرم
عليك سلام الله يا أم واثق
ووالاك من جدواه هتان يثجم
سيبكك لا يقنى دموعا ولادما
مدى العمر مقروح الجوانح أيم

وحمل أبى أحزانه بين ضلوعه، وذهب بهم إلى أسيوط مديرا لها،
وبقى هناك ثلاثة أعوام أحب خلالها أهل أسيوط وأحبوه، فقد كان
أبى قريبا إلى القلوب. الكلمة الحلوة تسبق إلى لسانه دون أن يبحث
عنها. والابتسامة المرحة المطمئنة تبدو على شفتيه دون أن يقتعلها.
كان يحب الناس كما هم يحبونه ويقدر أن للبشر حدودا لا يظالبهم
بالتفوق عليها.. وهذا فى نظرى هو سر حب الناس له وقد كان

مهيب الطلعة فارح الطول أنيق الملبس والحركة على وجهه جمال وجلال من الملفت للنظر أن جيل أبى كله أو معظمه تجمعهم صفات متشابهة، فكلهم قرأ الأدب العربى وأحبه والغربى واستوعبه. كلهم قرأ القرآن وارتكز عليه ليحمل لغته كلهم قرأ التراث وبنهم وشغف. سمعتهم يتناقشون، وسمعت حوارا ممتعا أخاذا يستعرض التاريخ والأدب والشعر والفن والسياسة.. وراعنى منهم تنوع الثقافة وجمال العرض صقلتهم التربية القديمة فهم متواضعون فى كبرياء. بسطاء فى عز شبوا على تحمل المسؤولية والترحيب بها.. إنه جيل شرف مصر كلها فى جميع المجالات.

كانت حياته فى أسيوط رتيبة يذهب إلى مكتبه فى الصباح - وإلى نادى البلدية بعد الظهر، ويعود إلى بيته فى الساعة التاسعة فيجدنا: أختى وأخى وأنا فى انتظاره ولكن كالتماثيل، فقد كان الأدب وقتذاك يقتضى ألا نبادئ الكبار بالحديث وأن نرد على قدر السؤال إذا سئلنا، وكنا فوق ذلك كله نهابه. ومهما يحاول أن يفتح أبواب الحديث كنا نغلقها بكل أمانة، ونعود إلى الصمت المطبق لنحيل حياته إلى ملل وبيته إلى صحراء.

أذكر أننا عدنا مرة من السينما فسالنا أبى من باب المسامرة.

- رحتمو السينما

- نعم

فقال لأختى

- عجبكم الفيلم ؟

- إيوه

- الفيلم عبارة عن إيه .. حكايته إيه ؟

- واحد بيحب واحدة

- فسكت ياسا واستسلاما

وكانت أختى تتبع نظاما قاسياً فى الغداء لتخفيض وزنها، فإذا طلب منها يرفق ألا تقسو على نفسها ولا على صحتها. غضبت وحبست نفسها فى غرفتها يومين أو أكثر، واعتبرت هذا تدخلا فى شئونها الخاصة، فإذا ما سأل عنها وعلم باحتجابها. لم يعلق وإنما يترك الأمر يمر ببساطة.. ومما يلفت النظر عند أبى أن وجهه كان يعكس كل ما يدور بنفسه وكانت والدتى تحس به وتقرأ بنظرها دخيلة نفسه، وتفهم إذا كان يشكو من ضيق أو غضب أو ملل وتسارع وتقترح هى ما يريد هـو. دون أن ينطق ببنت شفه، واعتاد على ذلك وظل على هذه الحال إلى أن أوقعته الأيام فى أيدينا، فى أيدى ثلاث كوارث فى أيدى ثلاثة أولاد يرونه والهـم يعصف به والسأم يملأ نفسه وكل منهم فى حاله، تشغله المدرسة والمصروف والقلم والأستيكة..

وقد ظل أبى مرتديا البدل السوداء عامين كاملين بعد وفاة والدتى، ثم جاء يوما يخبرنا بكل رقة أن أصدقاءه فى أسيوط، واذكر

منهم وهيب دوس وحبيب دوس وكمال نخلة.. رجوه أن يخلع
السواد فإذا بنا ينظر كل منا إلى الآخر في امتعاض، وإذا بنا بعد أن
نخلو إلى أنفسنا نتهمه بأنه هو الذى يريد ذلك، وكأنه جرم
لا يغتفرنتفق على أن نكشر إظهاراً منا للاحتجاج، وإنى كلما تذكرت
تلك الحقوسة منّا لا أغفر لنفسي ولا لإخوتى هذه التصرفات الصببانية
التي تحمل فى ثناياها الأنانية والوحشية.. فقد كنا سعداء بأحزانه
هانئین بآلامه، ولكن لا ننسى نحن أن نذهب إلى السينما كل
أسبوع. ولا أن نختار الألوان الزاهية للملابسنا - والويل كل الويل
لأبينا إذا هو حاول أن يخفف مما به. وقد نوه عن ذلك حين قال:

لما خلعت سوادى فيك عاتبنى

بمطرق من كسيف اللحظ أكبادى

أنا انذى تتراقى النار فى كبدى

أما أحسى أوار النار أكبادى

من أجلكم وصباكم فى بشاشته

نهنت ارسال دمعى الظاهر البادى

حطتمو بالصبا اصفاذ رزئكمو

وظلت أحمل اغلالى واصفادى

وإنى الآن أتمنى لو أنه أمسك بنا نحن الثلاثة وأوسعنا ضربا

وشفى فينا غليلى الذى يعذبنى إلى اليوم.

وظللنا سنوات إذا اجتمعنا على المائدة فمكان أمى موجود
لا يشغله أحد ولو زاد عددنا أو احتجنا إلى المكان.

كانت أختى تكبرنى بعامين. كانت فى السابعة عشرة من عمرها،
على وشك الزواج من ابن عمتها أكمل أباطة.. وهو الآن من المزارعين
الناجحين فى الشرقية ويحب الشعر، ومع مرور الزمن أصبح ذراع
أبى الأيمن يباشر الزراعة التى لم يكن أبى يعرف عنها الكثير،
وزادت الألفة بينهما واعتبره أبى ابنه الأكبر كانت اختى بسبب
هذه الخطبة تسمح لنفسها بالتزين، وكنت أرى ألاً حق لها فى هذا
إلا بعد الزواج فذهبت إلى والدى والغيط يدفعنى وقلت له «أختى
تتزين وتكثر من الزينة» وطلبت أقسى العقوبة على ذلك - ولكننى
روعت عندما نظر إلى نظرة كلها لوم وتأنيب وقال لى «وانت مالك»
فخرجت مسرعة أبدى حنقى وأخفى خجلى واصطدمت بأختى وهى
تكمل زينتها باسمه ولكنه عاتبها على الغذاء كما قالت لى أختى بعد
ذك وتطور الأيام وأذهب إليه بعد عشرين عاماً لأشكو له ابنتى ومن
نفس السبب.. ويكون رده مشابها لرده القديم، ويطلب منى أن
أتخلى عن أفكار القرن الماضى قد كان دائماً يتهمنى بالتأخر - وله
القدرة على تفهم مشاكل الشباب ويفوقنى كثيراً فى الوصول إلى
عقلية أولادى.. ويسخر منى كلما تصديت للأمر الواقع ويناقش
ابنتى فى الحب والزواج، وتتكلم هى معه ببساطة وحرية وتعرض

أراءها بإسهاب وتصف له وهي فى الخامسة عشرة من عمرها كيف تريد زوج المستقبل فى الوقت الذى لا أجرؤ فيه أنا على إبداء رأىى أمامه لا فى الحب ولا فى الزواج، بل أننى لا أستطيع أن أكلم زوجى فى وجوده بالحرية التى تتكلم بها هى عن زوج المستقبل.

كانت حالات أبى وهن كريمات إسماعيل باشا أباطة دائمات السؤال عنه وهو فى أسيوط.. وكانت تجمعه بهن صداقة قوية وحب متبادل وتفاهم كبير.. كان يجد عندهن راحة نفسية فقد أحبين والدتى! وقدرن أحزانه وآلامه، بل وشاركنه فيها، وكنا نتوجه إليهن كلما أردنا شيئاً كمالياً من أبنينا، فتنحول الطلبات إلى أوامر تصدر إليه فيدفع بعد دفاع صورى عن النفس، وكانت أكثرهن إلحاحاً عليه هى حرم الدكتور حسين أباطة، وقد ظلت توالينا إلى أن تزوجنا جميعاً، وكنت أشكوه إليها إذا فضل أختى عنى فى شىء. وأغتنم فرصة وجوده فى القاهرة وأكلمها من أسيوط لأطلب ما أريد، وإذا بأبى يعود ومعه ما طلبت وأكثر، وكان من باب الانتقام يقول: «ايش تعمل الماشطة فى الوش العكر» وقد ظلت صلته بخالته هذه تقوى مع الزمن وكان لها فى حياته مكانة لا تمس.

تزوجت أختى ونحن فى أسيوط وحاول أبى أن يكون أبا وأما.. وأذكره وهو معنا فى المحلات لاتكاد أختى تشير إلى شىء حتى يشتريه، وكنا جميعاً لا ندري من أين نبدأ ففكر فى أن يلجأ لابنة

خاله «عبد الحميد بث أباظه» وهى زوجة عمه محمد فى نفس الوقت وكلفها بأن تقوم بشراء ما تحتاجه العروس، ولهذه السيدة فى حياتنا شأن كبير فإن ننس لن ننسى وقوفها مع أبى يوم وفاة والدتى، ثم لجوءنا إلى بيتها كلما ضاقت بنا الدنيا وترحيبها واهتمامها بأمرنا ونحن فى المدارس الداخلية.. فقد كنا نخرج من المدرسة إلى بيتها أيام الآحاد.. وكانت تذهب بنا مع ابنتها هيام إلى السينما والمسارح والحداثق العامة وكان اليوم يمر كلمح البصر ولا نشعر إلا ويوم الاثنين قد حل فنذهب إلى المدرسة ساخطين.

واحتفل والدى بزفاف أختى احتفالا كبيرا.. جمع فيه أصدقاءه.. وأذكر أننا كنا نتفرج على الضيوف من شرفة المنزل، وكان كبراء مصر سنة ١٩٤٥ يملئون حديقة الربعمامية على موائد الغداء وكنت أرى أبى جميلا بين مدعويه.. وخيل إلى أنه ليس فى مصر كلها من هو أجمل ولا أكثر هيبة من أبى وأعمامى من حوله.. وكان عمى «بابا عثمان» كما كنا نناديه شديد التعلق بوالدى، شديد الحب لوالدتى؛ فقد كانت له بمثابة الأم فازداد عطفه علينا بعد رحيلها وتغلغل فى أمورنا بقلب كله حنان وحب.. راعانا فى طفولتنا وتعهدنا فى شبابنا، وأحبنا بملء نفسه، ولم نكن نستطيع أن نجازيه على حبه إلا حبا وعلى عطفه إلا تعلقا، وكان لا يحيد عن الحق ولو سلطت عليه السيوف، وكنا على حينا الشديد له نخشاه ونخافه، ونعجب به فى نفس الوقت. رأنا يوم زفاف أختى

كالتائهين فى الصحراء فأخذنى وأخوتى بين ذراعيه وتلاقت قلوبنا. وتلاقت أدمعنا. عدنا بعد الفرح أخصى وأنا إلى أسيوط، وقد كانت مشاجراتنا اليومية تقطع الملل الذى يعيش فيه أبى.. فقد كان أخصى لا يحب أن يضع وقت فى الدراسة على الرغم من ذكائه، وكان يرجونى فى امتحانات الفترة أن أخصى شهادتى حتى لا يسأل أبى عن شهادته، وكنت أستنزف أمواله ومجاملاته حتى أخصى شهادتى أسبوعاً أو أكثر، ثم أذهب إلى أبى ليوقع عليها.. وبقي أخصى يستعمل أسلوب التسويق هذا إلى الآن.

وكان لأخصى صديق اسمه سمير ويصا، وهو ابن ألفى بك ويصا من أعيان أسيوط، واتفقا على الهروب من المدرسة وأخذاً سيارة وذهباً بها إلى ديروط.. وبعد دقائق علم المأمور بوجود ابن المدير فاتصل بأبى فى مكتبه فقال له «ارسله ومعه عسكري» وجاء أخصى وزميله مرتعدين ودخلا المدرسة بعد استئذان الناظر. وكان سيد بك روحه، وهو من الشخصيات التى لا تنسى بين رجال التعليم فى ذلك الوقت. وما أن انتظم أخصى فى فصله حتى فوجئ بأبى أمامه. ولا ينسى أخصى وزملاؤه جميعاً كيف ضرب أمام الجميع فقد اعتقد أنه يستطيع أن يهرب بسيارة متى شاء بنفوذ المدير، ولكن نفوذ الأب كان أقوى وأوقع.

وحدث بعد ذلك أن صمم الناظر نفسه على طرد تلاميذ السنة الخامسة «البكالوريا» نهائياً. وأظن أن السبب كان خطيراً. غير أنى

لا أذكره الآن، وصعق أولياء الأمور ووسطوا أبى لدى الناظر، وبعد مفاوضات ومحاولات جاء الصبح وعاد كل إلى سبيله ومنهم الآن أسماء معروفة.

خفف أهل أسيوط أحزان أبى والتفوا حوله. ومضت الأيام. وفكر أبى فى الزواج ثانية. وإذا بالخبر ينزل على نزول الصاعقة. أين الشعر الحزين إذن؟ أين الوفاء؟ أين القسم الذى أقسمه وكتبه شعرا على قبر والدتى؟ تتابعت فى ذهنى كل هذه الأسئلة التى لا تتبادر إلا إلى أذهان أبناء الخامسة عشرة الذين لا يقبلون من الأوضاع إلا ما يناسب رغباتهم هم، وكنت حتى هذه السن أعتبر أن هذا البيت مانعاً فعلياً يقف فى وجه أى تفكير فى الزواج:

سألقاك لم يُشغل فراغ تركته

ببيتى ولم يملأ مكانك من قلبى

والغريب أنه عندما أعلن خبر زواجه أرسلت إليه سيدات من العراق وسوريا يستنكرون هذا الزواج ويعتبرن أن قلعة الوفاء للمرأة قد انهارت، ويلوحن له بديوان «أناث حائرة» ونشرت بعضهن مقالات فى مجلة «الرسالة» كلها لوم وعتاب، وكان يطلعنى على تلك الرسائل المشتعلة وكنت أبدى إعجابى بها.. خصوصاً وأنها تعبر عن رأى الذى لا أجرؤ على الجهر به.

لم يكلمنا أبى فى موضوع زواجه . بل أرسل إلينا عمى ، أو بابا أحمد . كما نسميه ، وقد اختاره لهذه المهمة لسعة أفقه وحيلته وذكائه الوقاد ، ولم تكن تختلف معاملته لنا عن معاملة أبينا ، ولم تكن حقوقه علينا تقل عن حقوق أبينا ، أرسله لنا ليمهد لنا الطريق ، فإذا بأخوى يسكتان وإذا بى أناقش مناقشة عظيمة وأدخل فى حوار لست على مستواه . وأخذ عمى يلاطفنى ويردنى إلى أن جمعنا والدى .. وكان رقيقا كعادته وقال «إذا كنتم غير راضيين .. فنحن مازلنا على البر» وأريد أن أسمع منكم أنكم راضون .. فأجابته أختى وكانت قد تزوجت إنها راضية ، ولم أجب أنا .. فالتفت إلى وقال «تولى إنك مبسوطه» فلم أجب .. وكان هذا فى وقتنا يعتبر منتهى الجرأة والتحدى ..

وانتهى الاجتماع وانتابتنى بعد ذلك نوبة من البكاء ، ثم نوبة من الضحك العصبى وتبادلت على النوبات متعاقبة . لو قلت أكثر من عشر مرات لما كنت مبالغة .

وقد أشار أبى إلى هذا الموقف فى إحدى قصائده عندما قال :

وبنيات تخطرن على

رونق العمر وموشى صباه

قلن ما خطب أبينا بعدما

هصرت بين ذراعيه مناه

فبكاها.. وبكاهها ومضى

مثلا يضرب فى الدهر وفاه

يابناتى من ذاق الهوى

قدساً عاد إليه فارتواه

لو إذا اقتنيه كدرا لصفى

عن جديد منه قلبى فأباه

يابناتى إذا القلب صبا

وهن العزم وخارت قدماه

فإذا عوتب فى صبوته

لج فيها.. هكذا الله يراه

وتزوج أبى من أمينة صدقى ابنة إسماعيل صدقى باشا وهى سيدة
لم أر فى الناس مثلها فهى ذكاء متقد، وسريرة نقية وقلب حان
وخلق قويم. لم نطالبها بشيء وأعطتنا من نفسها وقلبها كل شيء.
ولكن كل هذا لم يمنع سوء استقبالى لفكرة الزواج. فى أول الأمر.
ومشت بنا الحياة فى أسيوط. ولم أكن أريد أن أرى الجوانب
الحسنة فى زوج أبى. ولو أن هذه الجوانب تنكشف أمامى يوما بعد
يوم. وكنت أبتعد عنها وألجأ لأبى فى كل أمورى، ولعل علاقتى
بأبى بدأت تقوى وتتأصل لذلك السبب. أتم أبى فى أسيوط رواية
العباسة. ومثلت فى دار الأوبرا. ودعاها الملك بعد أن شاهدها إلى قصر

عابدين مع الفرقة القومية ولجنة القراءة لتناول الشاي. وأنعم عليه برتبة الباشوية. وتبارى أهل أسيوط فى إظهار مشاعرهم نحو أبى بمناسبة الباشوية. فقد كان يدعى كل ليلة ليسهر عند واحد من أعيان البلد. واستمرت هذه الحفاوة شهرا على الأقل. ودعينا أنا وأخى عند عمدة أسيوط صمويل شنودة وكانت السهرة فى قصر له حديقة مترامية الأطراف لم أر لها آخرا. وامتدت المائدة على النجيل. وكانت الأطباق التى بها ألوان الطعام مضاءة بالكهرباء. والمائدة عبارة عن أنوار تتألأ، وكأنها أحجار كريمة مختلفة الألوان. والحقيقة أن هذا المنظر بهرنى وأنا فى هذه السن الصغيرة. ولم أجرؤ أن أسأل كيف يضاء الطعام ولم أظهر الدهشة وكأنه شىء طبيعى بالنسبة لى. ولم أنس هذا المنظر إلى اليوم.

كنا نحضر عرض رواية العباسة كل ليلة حتى حفظنا نغمات أصوات الممثلين فى جميع المواقف.. وكانت أختى تعد الأماكن الخالية فى الصالة وتعتبر المقعد الخالى إهانة شخصية لها. والحقيقة أن الجمهور كان يحب الشعر ويهتز له. بل كان أحيانا يكمل الأبيات مع الممثلين. ففى «قيس ولبنى» موقف لابن أبى عتيق يهدئ من ثائرة «قيس» وهو يحاول أن يعيد إليه لبنى:

اصطنع يا قيس صبورا

إننى أعرفهنه

إن للنسوة جهلا
 وهوى يملكهنه
 خلق ركب فيهن
 فواتى طبعهنه
 لا ترع مما تراه
 وتنظر رشدهنه
 طابع النسوة فأعلم
 يتمنعنن
 فيكمل الجمهور
 « وهننه »

وتكرر ذلك فى كل مرة شاهدت فيها « قيس ولبنى » .. ولا أنس
 يوم افتتاح « قيس ولبنى » ظل أبى ملازما الفراش ملتفا بجميع
 الأغطية الموجودة فى المنزل، فقد انتابته قشعريرة.. من شدة
 الارتباك فهو ينتظر فى هذه الليلة حكم الجمهور على أول عمل له
 يظهر على المسرح وكان أخواه وأعمامه يهدئون من روعه، ودقت
 الساعة وذهبنا مساء إلى المسرح وكانت الأنوار تتلأأ، والسيدات
 بملابس السهرة الفاتنة، والجواهر الثمينة يزدن دار الأوبرا جمالا
 على جمال.

ومثلت الرواية وقوبلت مقابلة حارة، وأظهر الناس إعجابا
 بالشعر وإحساسا صادقا به.. وبكت السيدات إشفاقا على لبنى حين
 قالت:

يارب هذا ما قضيت فليس لي
فى العقم من ذنب وأنت عليم
زعموا قضاءك تهمة فتألبوا
هذى تعيرنى وذاك يلىوم
يارب تعلم أننى صانعتهم
والقلب منهم مثخن مكلوم
وبغوا فلما قلت يا نفسى اصبرى
غضب الظلوم.. وعوتب المظلوم
ونجحت رواية «قيس ولبنى» وذهبت القشعريرة عن أبى..
ولم يحاول أن يخفى فرحته فقد كانت عيناه تفيضان بها، ولكن
تواضع ورقته لم يفارقاه، لحظة واحدة.

مخرج الرواية

وأترك الأستاذ فتوح نشاطى يتكلم فى كتابه (خمسون عاما فى
خدمة اسرح) ويقول: ولأول مرة فى تاريخ المسرح الشعرى تضرب
رواية «قيس ولبنى» كل الأرقام القياسية فى النجاح الأدبى والمادى.
فقد مثلت أول الأمر شهرا ونصفا على التوالى، ودرت على الفرقة
أكبر الإيرادات. ثم أعدنا تمثيلها بعد ذلك عشرات المرات. وقد
قدمت إدارة الفرقة للمخرج والممثلين والممثلات هدايا نفيسة لمناسبة
نجاح الرواية العظيم. ولما بذلوه من جهود ممتازة فى القيام بعملهم
كما قال الأستاذ محمد حسن مدير الفرقة فى حديث صحفى. هذا

عدا ولائم شائقة قدمت لنا خلالها ألوانا من الطعام الفاخر وعلى رأسها العدس الأباطى المشهور.

ويستمر الأستاذ فتوح قائلا فى الكتاب نفسه : كتبت مجلة آخر ساعة المصورة فى صفحة عالم الفن هذه الحادثة التى إن دللت على شىء فعلى تواضع مؤلف قيس ولبنى «ومن ظريف ما حدث فى حفلة افتتاح رواية قيس ولبنى» أن الجمهور أراد أن يرى المؤلف ويحييه. ولكن عزيز أباطة وهو رجل متواضع حى خجول أبى أن يظهر على المسرح ليرد تحية الجمهور. وانكمش فى البنوار الأول فى ركن منزو لا يراه منه أحد. ودبر محمد حسن مدير الفرقة مؤامرة لطيفة مع الأستاذ شكرى راغب مدير مسرح الأوبرا لإظهار عزيز أباطة على المسرح على الرغم منه. فطلب إليه أن يذهب بعد الفصل الثالث مباشرة إلى المسرح ليهنئ الممثلين على نجاحهم. وأجابه عزيز أباطة إلى طلبه ولكنه لم يكذب إلى منتصف المسرح حتى ارتفعت الستار. فضربت معه لخرة. ووقف مبهوتا دقيقة أو دقيقتين لا يدري ماذا يعمل والجمهور يصفق ثم خرج من المسرح عدوا.

وبدأ بعد ذلك فى كتابة مسرحية شعرية عن «ديك الجن» وكان لا يزال يملأ علينا الشعر ولم يكن يكتب رواياته بخط يده بعد . وكان بعد عودته من عمله يخلع ثياب الخروج، ويلبس ثيابه المنزليه.. وبعد تناول غذائه يجلس على كرسيه الخاص به، وإلى جانبه منضدة عليها أقلامه وأوراقه، وعلى الأرض وحوله قدميه

يضع كتبه ومراجعته ، ثم يمسك بحاجبه الأيمن بأصبعه ويملى علينا الشعر.

وكلما تذكرت هذه الصورة خيل إلى أنها لوحة جميلة تمثل شاعرا مرهفا يكتب وسط عائلته بهدوء ودون ادعاء.

وقد أتم فصلا كاملا فى رواية.. «ديك الجن» وأذكر بعض أبياتهم :

اخترى ياظبية القاع

ويــــــــــــــــاعود الأراك

أنا يابنت السننا والمجد

كــــــــــــــــالبدر أراك

عز بيت قد تبناك

وملك قد نمناك

وتسامت شرفات

شع منهن سنناك

خصك الله بحسن

لم ينل منه سواك

وأخذنا نقرؤها فى غيابته ونقلب فيها حتى أضعناها ، وجاء فى ميعاده يسأل عن الكراسية فإذا بنا نرتبك ونتلجلج ، ونجد فى البحث عنها ونحن نعلم أننا لن نجدها وأظنه رأى الخوف فى أعيننا ففهم وسكت ، ولم يقس ولم يعنف حيثما كان يجب أن يقسو وأن يعنف .

ثم فكر فى كتابة مسرحية شعرية عن معاوية، وكان رأيه أن المخرج سوف يجد مجالا واسعا للإبداع لأن حكم معاوية كان يتسم بالفخامة والإبهار.

وفى مقابلة مع الدكتور طه حسين كلمه عن معاوية وقال له إن الفكرة قد تسلطت عليه تماما.

فقال الدكتور:

- انصحك يا عزيز ألا تفعل، فمعاوية شخصية غير محبوبة، إذا جاملته ثار عليك البعض، وإذا ظلمته ثار عليك البعض، وفى الحالين لن تكون منصفًا.. فعدل أبى ولم يتردد.

كان الخط مجرم الصعيد الذى دوخ الأمن فى عنقوانه عندما كان أبى مديرا لأسيوط وكان من المستحيل القبض عليه. فقد كان يحميه بعض الأعيان، وكان يخشاه الناس فلا يبلغون عن مكانه، بل ويسترون عليه. فقرر الحكمدار أن يقبض على زوجته ووالدته حتى يضغط على الخط ويسلم نفسه، ولما علم أبى ثار وغضب، وكان فى موقفه هذا إنسانا وشاعرا. وقال للحكمدار فى حدة:

- إن هذا التصرف ليس من الإنسانية ولا من الشهامة فى شىء. إن واجبنا أن نصل إليه بالقوة لا عن طريق النساء اللائى لا حول لهن ولا قوة.

وأخلى سبيل المرأتين، وتمكنوا من القبض عليه بعد شهرين بالطريق السليم. بخطة محكمة، وكمين - وقوة ضخمة من البوليس.

وأذكر يوما ونحن لانزال فى أسيوط أن جاءت ناظرة المدرسة الثانوية التى كنت بها لزيارة أبى، فرحبت بها وبقيت معهما ظنا منى بأن من الواجب على أن أبقى. وبعد قليل قال والدى: دعينا وحدنا قليلا فدهشت لدرجة أننى كذبت أذنى، ولم أتحرك من مكانى فأعاد طلبه، فخرجت وكلى حيرة فيما عسى أن يكون سرا بين النظرة وبين أبى، ولم يهدنى طول تفكيرى إلى شىء. ولكنى علمت بعد ذلك من إحدى المدرسات أن أبى قد قرر أن يدفع تكاليف السنة الدراسية لاثنتين من زميلاتى فى الفصل، لأننى قد عوفيت من دفعها ولم يكن يريدنى أن أعرف عن ذلك شيئا، ولكن يا أبى الحبيب لو أنى قد علمت.. لما استطعت إلا أن أكون ابنتك.

وفى يوم كنت جالسة فى حجرتى أستعد لدخول امتحان فى اليوم التالى وإذا بمن يدخل على ويقول لى إن أبى يطلبنى، فغضبت، لأنهم يعطلون استعدادى للامتحان، ولكننى ذهبت طبعاً على عجل وجدت أبى جالسا فى مكانه المعهود وعندما رآنى قال لى: لقد أرسلت فى طلبك لأسمعك ما كتبته الآن فى رواية الناصر فاجلسى واسمعى فجن جنونى من الغيظ، ولكننى كتتمته فى أعماق أعماقى وجلست على مضض أستمع إلى الشعر، وعقلى كله فى دروسى. وزاد من غيظى أننى لا حول لى ولا قوة، وأننى لا أستطيع إلا أن أبقى وأن أسمع، وعندما انتهى أبى من قراءته أسرعته إلى غرفتى وأخذت أبكى..

ويحيى!! ألم أكن أعلم وقتذاك أن أبى ليس ككل الآباء؟ وأنه حمل على كتفه عبء المسرح الشعري بعد شوقى، وأنه آلى على نفسه أن يحافظ على لغة القرآن رغم كيد الكائدين!! ألم أكن أعرف أن كثيرا من أساتذة الجامعة والمتخصصين كانوا يتسابقون إلى دراسة أعماله ويتلهفون على معرفة شيء عن حياته؟ كيف كان يكتب.. كيف كان يعيش وكيف كان يعامل أولاده وكيف وكيف؟؟ ألم أنتبه إلى أنني كنت إلى جانب فنان كبير؟ ألم أكن أشعر برضاء الله على حين أوجدنى فى كنف شاعر مرهف الحس عنده من الرقة أكثرها رقة؟ لعلنى اعتقدت أن الناس جميعا على شاكلته!! أو لعلنى كنت مثل باقى الناس الذين لا يقدرّون اللاصقين بهم حق قدرهم!! إلى أن كبرت ورأيت وفهمت وقارنت وأحسست، ولت نفسى والإنسان ما أكفره!

وأذكر أنني ذهبت فى رحلة إلى تونا الجبل مع مدرستى، واجتمعنا فى فناء المدرسة فى الصباح الباكر وأخذنا معنا غذاءنا لأننا كنا سنقضى اليوم بأكمله فى الرحلة ووصلنا إلى تونا الجبل فى محافظة المنيا. وبعد أن شرح لنا المدرسون ما شاهدناه من الآثار هناك حان ميعاد الغداء، فجلسنا على الرمل وهمننا بتناول غدائنا، وإذا بمن ينادينى ويطلب إلى أن أذهب إلى الاستراحة القريبة منا حيث يوجد بعض أصدقاء أبى. ولما ذهبت رأيت أصدقاء أبى جالسين على مائدة أنيقة وطلبوا منى أن أنضم إليهم. فتخرجت، لأننى أفضل أن أبقى مع زميلاتى، ولكننى تشجعت ورفضت برفق. وشكرت بقدر ما

استطعت وعدت إلى زميلاتى دون أن أقول كلمة. ولكنى خشيت أن يغضب أبى لأنى رفضت دعوة أصدقائه. وعندما عدت إلى أسيوط وسمع منى أبى قصتى قال على الغور:

- بل كنت أغضب لو أنك تركت زميلاتك يتناولن غداءهن على رمال صحراء تونا الجبل، وبقيت أنت فى الاستراحة الأنيقة ثم ماذنب زميلاتك إذا كان لأبيك أصدقاء كثيرون، وله علاقات واسعة. ماذنبهن حتى تعاملى أنت معاملة خاصة من أجل خاطر أبيك؟..

وقبى أن أترك أسيوط.. تلح على تلك الحادثة الصغيرة. فقد كنا دعينا إلى فرح وجاءت صديقة لى لتذهب معنا. فإذا بوالدى بعد أن حياها ينادينى ويقول لى: «أرجو ألا تلبسى شيئا من حليك فإن صديقتك لا تلبس حليا بالمرّة فلا تضايقيها» فقلت: «حاضر يا بابا» ولكنى لم أقل إنسى أنا الأخرى لم أكن أملك من الحلى شيئا.. وكبرت معى هذه اللفتة الصغيرة.. ولم أجد فى الناس هذا الشعور المرهف الرحيم. وكلما رأيت من مكنته الحياة من الظهور بمظهر الغنى والأبهة مع من لم تمكنه الحياة من ذلك خارجين معا فى اجتماع واحد وددت لو أنهم كانوا أقل أناقة وأكثر رحمة.

ترك أبى أسيوط وترك الوظائف الحكومية ودخل مجلس النواب ثم مجلس الشيوخ، واستقر بنا المقام فى القاهرة ودخل فى مجلس

إدارة شركات متعددة. وغير مجرى حياته.. وكان أخوه أحمد يقول «لقد دخل عزيز باشا الوظيفة فنجح فيها وأحببه الناس أينما ذهب ودخل الشركات ونجح فيها وعقد صداقات قوية مع الأجانب الذين عمل معهم ودخل ميدان الأدب ونجح فيه ورسخت قدماه فقد نجح فى كل ميدان دخل فيه».

كان أبى سعيدا عندما تقدم زوجى ثروت أباطة لخطبتي مع أنه كان لا يزال طالبا فى كلية الحقوق، وحدد الزفاف بعد امتحان الليسانس وحدث أثناء تلك الفترة خلاف بين أبى وزوجته.. وأظهرت بلا تحفظ مساندتى لها، وإذا وقفت الآن وقفة هنا، لوجدتني كنت مخطئة فى تقديرى للموقف، فقد كنت فى الثامنة عشرة من عمري، وكنت أعتقد أن مشاعر الناس يجب أن تخضع للقوانين وأن حياة الناس يجب أن تسير فى فلك مرسوم، وكأني أردت أن أخلع البيوت من واقع الحياة ودفاعتها.

وعز على أبى موقفى منه، وغضب منى وتجاهلنى إلى أن جاء يوم زفافى ولبست الثوب الأبيض ونزلت على السلم، وإذا به يقابلنى فى وسطه ويأخذنى بين ذراعيه ويقبلنى باكيا.. وغسلت دموعى ماقضيت فى تجميله ساعات وساعات، وأقيم الفرح فى بيت دسوقى باشا أباطة والد زوجى، وبدأت الزفة وهى فى نظرى الدقائق العصبية التى تمر بها كل فتاة.. إنهم يقولون إن هذه الدقائق

لا تحسب من العمر، وهى فعلا لا تحسب من العمر؛ لانها تخرج الفتاة من الشعور بالحياة.. فأمام كل هذه العيون الفاحصة التى تنظر فى لحظة واحدة إلى شخص واحد لايسعها إلا أن تكف عن الحياة، وبينما أنا خارج الحياة نفذت إلى عيون أبى الحانية وهى تتابعنى، وبجانبه أم كلثوم واستطعت أن أسمع أغنية الزفاف التى سمعتها أجيال من قبلى وستسمعها أجيال من بعدى.

وذهبت إلى بيتى، وكان إذا زارنى أبى انتظر فى الصالون وأرسل فى طلبى، فى الوقت الذى كنت أفاجأ فيه ببعض الضيوف فى غرفتى.. ولن أقول إن زواجى لم تعترضه الصعوبات، فقد كان كل منا يحاول أن يثبت وجوده، فأثبت غياب وغرورا.. أخذنا من عمرنا سنوات، وكان أبى إذا تدخل فبناء على دعوتنا، واضطر اضطرارا لأن يكون عادلا فإن كان الحق معى ساندنى علنا ولم يتحرج، وإن كان على شعرت بقلبه يساندنى وإن اشتد على بالقول أو انطلق لسانه بغير ما أريد.. ولقد كان شاعرا حتى فى أحكامه.. كان حانيا ولكن فى كبرياء.. لم أسمعه فى حياته ينطق بكلمة تجافى الذوق.. أو تجرح الأذن - فإذا نفرت الآن من بعض الألفاظ الغليظة التى تجرى على ألسنة الناس بسهولة سخر منى زوجى واتهمنى أننى أريد من الجميع أن يتكلموا بالشعر، ولكن عذرى أننى نشأت فى بيت شاعر عف اللسان.. رشيق اللفظ رحيم القول.

وفى أول حياتنا الزوجية نظم معنا أبى ميزانية البيت.. وأظنه كان فى هذا الموقف أرحم بزوجى، فأقلت من يدى زمام الأمر شهورا.. وكم لجأت إليه، وكم استنجدت به.. وكنت إذا ذهبت إليه وأنا معتنية بشكلى ومظهرى، أجابنى إلى طلبى بسرعة وهو راضى النفس متهلل الوجه.. وكنت أعرف ذلك وأستغل هذا الضعف فيه..

لم نهتم بأن نصور صورة تذكارية بملابس الزفاف، وكدنا أن ننسى - لولا أن أبى كلمنا يوما فى التليفون قائلًا.. إنه حدد ميعادا مع «ارمان» المصور المعروف فى ذلك الوقت وأنه سيقابلنا هناك.. وذهبنا ووجدناه فى انتظارنا.. وبقى معنا إلى أن انتهى المصور من تحريكنا كالشطرنج بنفس الطريقة التى يحرك بها كل من يقع بين يديه، وتكون النتيجة صورة تذكارية.. ولكن لا حياة فيها.

كنت جالسة مرة مع أبى وسأل زوجى عن مفتاحه فوصفت له مكانه، فابتسم أبى وقال «أنتكلمان كزوج وزوجة ولم يمض على زواجكما أسابيع» وكانت نبراته فرحة مدللة، وكنا نسكن قريبا منه.. وكنت أذهب إليه كل صباح. ثم وجدنا شقة فى نفس العمارة التى يسكنها فانتقلنا إليها.. وأصبحت أزوره صباحا ومساء، وأحيانا وقت الغداء، وكنت إذا قلت عدد الزيارات اليومية تملكه العجب.. وإذا تأخرت يوما ساوره القلق، وحينما انشغلت بتربية الأطفال كان

هو الذى يأتى ويجلس إلى -- ويلعبهم، ويتقرب إليهم بالوعود فقط. ورغم حبه لهم.. كان يرى أن ما يقال عن حب المرء لأحفاده أكثر من حبه لأولاده شيء لا يقبله العقل.. ولا يقره القلب.. كان يعتبر نفسه المسئول الوحيد عن أولاده.. فهو يتحمل عبء المرض، والعمليات الجراحية.. واستقبال الأطفال أيضا..

وكان عنده ضعف شديد لأختى فهى أول الفرحة كما يقولون، وهى التى شهدت وفاة أمنا حين كنت وأخى بالربعمائة، وكان يحلو أن يعلن تفضيله لها ويبالغ فى ذلك أمامى، فكنت أثور أو أصطنع الثورة والاحتجاج والواقع أنى لم أكن أصدق. فأنا أعرف من أنا عنده.. ولكننى أعرف أيضا أنه يمازحنى.. وكان لا بد لى أن أمازحه وأدعى الغضب.. والحقيقة أن حب أختى له حب بدأت قوته منذ طفولتها حتى أنها كانت تحبه أكثر من حبها لأمى.. وتبدى ذلك ولا تخفيه، وكان يعاملها برقة وحنان ومجاملة فزاد تعلقها به. ولعل حبها له هو أقوى حب فى حياتها. إذا استسمحنا الزوج والأولاد.

وكنت إذا طلبت منه شيئا ظللت ألح وألح حتى يجيبنى إليه واعتاد منى على ذلك، بل إنه كان يقول لأصدقائه المقربين إلى قلبه.. إنه يحب تلك المناقشات وذلك الإلحاح، بل ويرفض خصيصا وهو ينوى الإجابة ليطيبيل المناقشة وكنتم أفتح باب المرافعة ولا أغلقه، وكنتم أقول له إن مركزى الاجتماعى يفرض على الكثير، فيقول

ساخرا «وأين هو هذا المركز الاجتماعي؟» فأجيبه يكفى أننى ابنتك
وهذا يكلفنى كثيرا.

وكما كان يحب هذه المناقشات.. فقد كنت أحيها بدورى
وأشعر أن الأرض ثابتة تحت أقدامى وأننى أستطيع أن أتحدى
به الناس والأيام، وإنى أشهد - أنه غمر أولاده بعطفه وبجبه
وبجاهه وعاش حياته لهم، وقد كتب مرة يصف مشاعره فى
أوتوجراف لى :

وهبتك قلبا مع شقيقك عامرا
بأغلى الذى عندى من الحب والعطف
وأسكنتكم احناءه منزلا لكم
فلو قد صددم عنه أسكنتم طرفى
وأصفيتم من حبة النفس رحمة
ويسعد نفسى أنها لم تزل تضى
وأبدى حنو والدين وأتقى
فأخفى.. فينهل الحنو الذى أخفى
إذا ما بذلت لى جزاء يضى لى
بقية أيامى. فمن ساكب العرف
وإن كانت الآباء كهف فروعهم
فكهفكمو حبى . وحبكمو كهفى

أما علاقاته بأصدقائه وأقاربه فكانت أساسها الرحمة والود إذا قصد لبي ونسى الأمر. ذهبت إليه أطلب خمسمائة جنيه لأحد أقاربي كان عليه أن يدفعها فوراً وإلا تعرض للقضاء، ولم يتركني أبى أكمل قصتي الطويلة، وإنما أعطاني المبلغ بلا تردد، وتكرر مني الطلب في هذا النوع من المشاكل، وتكرر منه العطاء إلى أن قال لي يوماً ضاحكاً: «هو إنتى مستخسرة فى فلوسى؟» ولا يتردد كالعادة. حكى لي أحد كبار ممثلينا المشهورين أنه ذهب وهو فى مستهل حياته الفنية إلى أبى وكلمه عن رغبته فى أن يدخل عالم الإنتاج، وكان هذا الممثل فناناً صادقاً، وأحس أبى أنه يحتاج إلى مساندة لكي يكمل مشروعه، فكفاه مئونة الطلب وعرض عليه هو أن يساعده، وكانت طريقة عرضه فيها أبوة، وفيها حنان، حتى خيل لهذا الفنان أنه إنما لجأ إلى أبى. وتم المشروع وظهر الفيلم ونجح ورد الممثل المساعدة ولم أسمع من أبى كلمة واحدة عن هذا الموضوع، وكنت دائماً أعجب بأبى لأنه يحترم إنسانية الإنسان.. إذا طلب أحد منه وساطة ما، والاه هو بأخبارها حتى لا يتحرج الطالب ولا يشعر نه يضايق أحداً، كانت رفته تفوق كثيراً الدرجة المعتادة. كان يتصرف دائماً بطريقة ناعمة إنسانية لا يفهمها الكثيرون..

وقص على مدير بنك مصر سابق، إنه عندما كان مديراً للبنك ذهب إليه أبى ليضمن صديقاً له من الشرقية فى اعتماده، وكان المدير يعلم أن هذا الصديق حالته المالية مرتبكة.. ولن يستطيع

السادد، فحاول أن يؤجل الضمان، فرفض أبى، فاضطر المدير أن يخبر أبى بالحقيقة فقال أبى:

«أنا على كل حال ضامن ضامن» فأجاب المدير «إنت ضامن ولكنك ستضطر إلى الدفع نيابة عنه» فأجاب «لقد نشأت فوجدت عائلة هذا الصديق أصدقاء لأبى..» ورأيتهم وأنا طفل فى سلاملك الربعمائة، فكيف أتخلى عنه، أنا ضامن ومستعد أن أدفع هذا الدين ولم يسدد الصديق ودفع أبى. لم ينس مدير البنك أن يمازح أبى ويقول له: ألم أقل لك يا باشا؟ فقال أبى «لقد فعلت ما يجب على أن أفعله» ومرت سنوات خمس وجاء أبى إلى مدير البنك مبتسما وقال: «لقد رد الصديق المبلغ وأرسل لى صندوقا من الكمثرى من الحديثة التى ساعدته على إنشائها» وطوال السنوات لم يتوان عن رد غيبة الصديق الذى اعتقد الجميع أنه اختفى إلى الابد».

دخلت مرة محل تحف صينية بجانب سينما أمير بالإسكندرية صاحبه رجل صينى مسن.. وسألته عن ثمن ترابيزة أعجبتنى فقال «لك أنت بالسعر الذى تريدينه.. وتدفعين فى الوقت الذى يناسبك.. فدهشت ولكنه قال: «إنك قد لا تعلمين أفضال والدك على فلقد دخل يوما محلى ووجدنى واجما حزينا فسألنى عما بى. فقلت إننى محتاج لمبلغ من المال لمدة شهر، فقد فاجأنى طارئ. ولا أجد حلا لمشكلتى - فإذا به يخرج دفتر شيكاته ويعطينى المبلغ بلا

أى ضمان، وهو لا يعرف غير المحل مكانا لى، فإذا أغلقتة أو سافرت فأين له أن يجد مكانى.. وقد رددت المبلغ ولكننى لم أنس الجميل.. فأجبتة أن هذا شىء طبيعى، وأنا أعلم أنه ليس كذلك فى رأى أغلب الناس، واخذت الترابيزة.. ودفعت ثمنها على عدة أقساط.

سفرت مرة مع أبى إلى الإسكندرية وكان يجمعه ود بصاحب محل بيع فضيات معروف اسمه «الحاج رشاد» وكان الحوار يدور بينهما عن الدين والأدب. اشترى أبى واشتريت أنا وقلت لأبى:

المبلغ كبير جدا ولن أستطيع أن أدفعه.. فأرجوك أن تدفعه لى ثم تخضم منى مبلغا أول كل شهر. فوافق أبى ونفذنا الاتفاق فعلا فى الشهر الأول، ثم نسى هو وتناسيت أنا ومرت الشهور وذهب أبى إلى الإسكندرية وتذكر الدين وجاء يحاسبنى فقلت:

- بل دفعت.. وإن كنت نسيت فما ذنبى أنا؟ وهل تحتمل ميزانيتى أن أدفع الدين مرتين؟ فسكت.. ولكننى بعد فترة قلت له ضاحكة:

- إننى لم أدفع شيئا.

- فأجاب غاضبا

- وأنا لن أتعامل معك بعد ذلك، وقد عرفت أخلاقك بهذا المبلغ ولكن التعامل تكرر بنفس قلة الذمة من ناحيتى.. وبنفس طيب

الخطر من ناحيته ، ولما ذهبنا إلى العمرة.. وكان قد دعاني مع أختي
وزوج أختي لهذا السفر قلت له :

- إنني دعوت لك بالصحة وطول العمر عند النبي.. ولكنني
استأذنته في الاحتياال عليك أنت فقط..

وكنا قد أهدينا رغبتنا في أداء العمرة، فظل يشجعنا ويسألنا يوميا
عن إجراءات السفر.. وعن الاستعداد للسفر، وكان تحمسه يعادل
تحمسنا أو يزيد عنه، ثم قرر أن تكون رحلتنا على نفقته.. وكنت
أتعجب من شدة حماسه، ولكنني عرفت بعد ذلك أن فريضة الحج
كانت أعلى أمنية عند أمي ولم يمكنها المرض ولا العمر من أدائها،
فسارع إلى رغبتنا يلبيها لعله بذلك يرضيها ويرضيها، ثم أرسل
للأمير عبد الله الفيصل.. ولست في حاجة أن أقول ما وجدناه من
حفاوة وتكريم.

كنت وأبي دائمى النقاش، وكان دائما يختلف معي، فهو رواح
واسع الأفق ذهنه قابل للحركة والتجديد - إلا في الشعر، وكان
يتهمني بضيق الأفق والرجعية فكان يرى أن الإنسان إنسان وأنه
معرض للخطأ وأن الظروف قد تدفعه إلى حيث لا يريد أن يصل..
وكان يحب الجمال ويغفر للمرأة الجميلة الكثير. وكنت أرى أن
الإنسان يجب أن يكون أقوى من الظروف وإذا تساهلت بالنسبة
للرجل فلا أسمح للمرأة بالخطأ.. وكلما زاد جمالها زادت قسوتي

عليها لأنها يجب أن تحمى نفسها من غرور نفسها ومن الطامعين - ثم إن الزوج الخائن يمكن أن يسامح أما الزوجة فلاتوبة ولا غفران ولا نقاش - فالمرأة تخون نفسها وتخون أولادها وتخون الاسم الذى انتمنت عليه ، وإذا حاولت أن أتخلص من رجعتى ، وحاولت أن أكون مرنة حتى يحتملنى أبى وفرضت أن حبا دهم الزوجة وهى فى عقر دارها، فلتكتف إذن بهذا الشعور الجميل، فلا كلمة ولا لمس ولا خيانة وكان يستمع إلى مبتسما ويقول لى: «كان يجب أن تولدى فى القرن الماضى».

ذهبت معه يوما لنزور شقيقتى فاستقبلتنا وهى ترتدى روب زوجها وشيشبه، فانتقدها أبى فى رحمة ولطف، ولكنه لما خرجنا أبدى شعوره بالضيق وقال: «إنه ليس من حقها أن تبدو أمام زوجها هكذا ومنذ ذلك اليوم ظل يشتري لها من كل بلد عربى يزوره أجمى العباءات وأغلاها ثمنا لتكون كاملة الزينة فى بيتها، وكانت أختى لا تطلب شيئا أبدا.. كان هو الذى يسألها ويلح فى السؤال.. بل كان يسألنى إن كانت فى حاجة إلى شىء وكان هذا يثير فى نفسى الغيرة فكنت انتقاما منه أخترع الطلبات وأبالغ فيها، فيأتى بها دون تردد - ثم أختطف الفرصة وأقول له «يجب أن تعدل بيننا» وأطالبه بالمثل.. فيضطر إلى العدل اضطرارا.

قلت إنه كان يحب الجمال، وقد كانت لنا صديقة شابة يفوق جملها كل وصف وكان أبى شديد الاهتمام بها، وكان يريدنى أن

أهتم أنا أيضا ولكننى رفضت هذا العرض بشدة. لأسباب تعرفها الزوجات وقلت له.

- والله لو لم تكن هذه الصديقة بهذا الجمال لما بلغ اهتمامك بها إلى هذه الدرجة فأجاب مبتسما ومداعبا.

- «أنت ما عندكيش إنسانية دى عيانة ومحتاجة لرعايتى واهتمامى» والنتيجة أن إنسانية أبى كانت تثير حنقى على تلك الإنسانية الجميلة، وكما كان ضعيفا أمام الجمال.. كان ضعيفا أمام أبوته. ضعفا يخفيه حيننا وينهل منه أحيانا، فقد خيل إلى يوما أننى أصبت بمرض خطير - لا علاج له ونسج خيالى ما شاء له أن ينسج حتى كدت أجزم بالأمر، فأصر أن يذهب معى إلى الطبيب ولم يمنعنى هلعى أن أشفق عليه وأن أثنيه عن مرافقتى، فقد قدرت أن جزعه سيكون أعمق من جزعى. وأن ألمه سيكون أكبر من ألمى، إنها المشاعر التى لا يجرؤ أن يحس بها الإنسان إلا لوالديه، إنها المشاعر التى إذا فقدناها اختل ميزاننا ومادت الأرض تحت أقدامنا، ولكن يكفى أننا سُعرنا بها يوما، وطماننا الطبيب وزال عنا الخوف.

أما عزيز أباطة ازوج، فقد احترم المرأة وقدرها، وأعطاهما حقهما من الحرية وعاملها معاملمة الند للند رغم أنه من مواليد ١٨٩٨، ولم أره مع أمى إلا والاحترام قائم بينهما والحب يشع من حولهما،

ورأيته يقدر زوجته الثانية يجلبها ويحمل لها أصفى الود وأصدقه ،
فقد رعته ورعت أولاده وجمعت شمل بيته بعد أن كان قد تصدع .
وقد أكرمه الله ولم ينشأ بيننا وبينها خلاف كما يحدث عادة ،
وكنت أقول له : «إنك لم تذق طعم هذه النوع من العذاب» وهو
عذاب فعلا لمن هو فى مثل رفته .. وإنسى أحمد الله وأحمد زوجته
لأنها لم تكلفنا هذا العناء ، فقد أحببناها لأنها اختارت أن تكون أما
لنا .. اختارت راضية ما تجبر عليه الأمهات إجبارا .. اختارت هى
فكان حقها علينا أكثر من حق الأم وأكثر من حق الرحم ، وقد
وضعت هى وإخوتها تحت الحراسة ، وفى ضربة عشواء تغيرت
أقدار الناس وتحملوا الظلم بكرامة وثبات ، وليس كالظلم يهد كيان
الإنسن ويزلزل إيمانه .. ولقد عرفتهم صغيرة وكبرت بينهم ورأيت
بيوتهم تستقبل الغنى وتستقبل الفقير بنفس الحفاوة وبنفس التكريم ..
وأشهد أنهم تمتعوا بما حباهم به الله من مال وجاه ، ولكنهم أسعدوا
الناس وأغاثوا المكروبين .

وأشهد لزوجة أبى بأنها لم تبخل بمالها ولا بصحتها فقد
كافحت الملاريا فى الأقصر سنة ١٩٤٣ والحمى الراجعة فى أسيوط
سنة ١٩٤٥ وبننت بتبرعات الأهالى فى أسيوط مستشفى من أكبر
المستشفيات فى مصر . وفى مصر القديمة جعلت من مستوصف صغير
مستشفى اعتبر فى ذلك الحين وحتى الآن من أعظم المستشفيات ،

وكان به أحسن الأطباء وكفأ هيئة تمريض وكان مديره الدكتور مصطفى الشربيني الجراح الشهير.

وقد يكون مثل أولاد إسماعيل صدقى باشا كثيرون ممن فرضت عليهم الحراسة، ولكننى أتكلم عنهم بالذات لأننى خالطتهم وعرفتهم حق المعرفة، وقد هاجر عادل صدقى إلى كندا وهو يقترب من الخمسين ولاقى من المتاعب والهوان مالاقى إلى أن وجد عملاً يناسبه، ولقد فضل المتاعب على الشعور بالظلم وفضل الغربة فى كندا على الغربة فى مصر.

وقف أبى إلى جانب زوجته، وكان زوجها مسئولاً وأخاً حانياً، وشريكا دمثاً رقيقاً ولكن لم تحتل زوجة أبى الشعور بالظلم وقام صراع بينها وبين نفسها أدى إلى اضطرابات عصبية تسببت فى إصابتها بانسداد فى شرايين الساقين، وتقرر أن تجرى لها عملية فى لندن. سافر معها أبى واصطحبني معه. واستغرقت العملية أربع ساعات كاملة، وقبيل العملية تحدث الجراح عن خطورة الحالة. وقال إنه ليس متأكداً من نجاح العملية.. وإنها قد لا تستطيع أن تسير أكثر من خمس دقائق متتالية، وطلب منها أن تكتب أنها قد أحيطت بالنتائج علماً، وأنها قد قبلت بمحض إرادتها إجراء العملية، وأحببت الكذب حينئذ. ووجدته أرحم أحياناً بالناس من الحقيقة، وأما المريضة فكانت ثابتة هادئة وأما أبى فقد حاول أن

يخفى قلقه - وأن يكتفم اضطرابه ، وأما أنا فقد شعرت بجسمنى يتخبط بعضه فى بعض ، وأحسست بقلبى يترنح فى صدرى ، ومرت العملية بسلام وكانت النتيجة أحسن بكثير مما قدر الجراح ، وبقي أبى إلى جانبها شهرا بأكمله يحنو عليها ويجاملها حتى كادت الغيرة أن تدب فى قلبى ، وبعد أن تماثلت للشفاء كنت أخرج مع أبى لتشاهد المتاحف والمسارح ، وفى يوم ذهبنا معا إلى السينما ، وبعد انتهاء العرض أمسكت معطفه بكلتا يدي ووقفت وراءه لألبسه إياه ، وإذا بنظرات التعجب تنهال علينا من كل جانب وكأنى قد أجمت عندما لم أراع بروتوكولهم ، وقرروا بالنظرة السريعة اللائمة ، أننى لأمت للمدنية بصلة ، والحقيقة أننى كنت سعيدة وأنا ألبس أبى معطفه ، ولم لم يكن الرأى العام ضدى بهذا الشكل لالتفت إليهم ولقلت لهم: «إن أجمل شىء فى حياة المرأة الشرقية هو تعلقها بأبيها وأمها» ورعايتهما لها.. فالأب يظل أبا حانيا مسئولا ناصحا إلى آخر لحظة فى حياته.. أما عندكم فالأبوة تنتهى عند بلوغكم سن الرشد.

وإن أجلنا الطرف فيما حوله وتركنا أولاده وزوجته جانبا لرأينا علاقاته العائلية متشعبة فقد كان شديد الحب لعمته ، وهى سيدة شديدة الذكاء ، واسعة الصدر تتكلم فى كل موضوع باتزان ووضوح فطرى ، وكانت لا ترحمنا نحن أهل بيته إذا سببنا له أبسط المضيقات وكان متعلقا بأخته وهى تكبره بعدة سنوات ، وهى سيدة

سريعة البديهة تحفظ الشعر وتستشهد به رغم أنها لاتكاد تقرأ، ولكنها خالطت في صباها جيلا من الناس أحب القراءة وحفظ الشعر وتعمق في الأدب، وكان أبى يحب الجلوس إليها ويستعيدان معا ذكريات طفولتهما، وكانت تشهد له دائما بعذوبة الحديث وتقول: «أخى عزيز يضع قطعة من السكر على لسانه» ولكن كان يحلولها أن تشكو منه إليه وأن تذكره دائما بما فعلته له وهما فى بيت أبيهما.. وكم وضعت فى جيبه الجنيهات الذهبية كلما عاد إلى المدرسة بعد الإجازة، وكم تعمد أن يبدو وكأنه لا يراها حتى لا يمنعها من ذلك وكان يضحك ويقول لها: «وكيف أنسى أفضلالك» ولكنها إذا أحست أن به ضيقا كانت ناراً على من سبب له هذا الضيق، وعندما تنفرج الغمة تعود إلى الشكوى، وكان يحبها كما هى. أذكر مرة أنه وعدّها بأقمشة كهديّة فى مناسبة ما.. وقال لى أمامها: عليك أن تشتري لعمتك أحسن ما فى المحلات من أقمشة، فذهبت وأردت أن أرضى أبى وأرضيها، فأخترت أقمشة جميلة وبسرر معقول، ولما رأت الهدية بدا عليه الامتعاض ولكنها لم تقل شيئا، فلا هى أثنت ولا هى انتقدت وإذا بها بعد ذلك تشكونى لأبى. وكيف أننى لم أوفيتها حقها وكيف أننى اشتريت أقمشة لا تليق بها، وكيف وكيف. فغضب أبى وقال لى «وهل طلبت منك أن توفرى لى، كيف تغضبين عمّتك؟ وكيف لا تعرفين ما يليق مما لا يليق؟ والتفت إلى أخته قائلاً: «أنا الذى سأشترى لك بنفسى كل

ماتريدين. «ومرت الأيام وجاءت المناسبة تلو المناسبة وطبعاً لم يذهب أبى إلى المحلات لشراء الهدايا لأخته، وطال انتظار عمتى، ولم يصلها إلا الوعود والنية الطيبة وبالطبع لم أتطوع لأحل هذا الإشكال. وفى يوم تقابلت معها عند أبى فأخذت تربت على كتفى فى نعومة، وتنظر إلى نظرات مدللة، وتقول وتريد أن يسمع أبى: «الحق على لك لقد أدركت خطأى. من قال إن ما اشتريته لى لم يعجبني؟ إذا انتظرت أن يشتري لى أبوك فسوف أنتظر عمرى كله. لن أشكوك بعد اليوم» ويضحك أبى ويأمرنى بتسلم مهام عملى الأول. ولكنى تحريت هذه المرة أن أشتري الأعلى ثمننا حتى أرضى عمتى وأعاكس أبى.

لما استقرنا المقام فى القاهرة سكنا فى حى الدقى وكنا نتمشى معا كثيراً فى شوارع القاهرة، ولايكاد واحد من المارة يمر دون أن يحيى والدى فقد كانت معارفه كثيرة بدرجة مذهلة، وكان يحيى رافعا يده إلى رأسه بحرارة تتفاوت على حسب درجة المعرفة، وفى يوم كنا سائرين أمام منزل صديقه سعيد بك الألفى فقال لى «تعالى أعرفك بسيدة جذابة الشخصية، ودخلنا ووجدنا صاحبة المنزل السيدة اعتماد الطرابلسى جالسة مع زوجها وأصدقاء لهما.. وأقبلت علينا تحيينا.. بوجه بشوش وصوت ساحر، وجلسنا معهم ودار الحديث عن الشعر فإذا باعتماد تقول شعرا من قيس ولبنى بصوتها الجميل وبنطق عربى أخاذ.. وبهرتنى هذه الأديبة الفنانة المعجبة. وأذكر

يوما أننا خرجنا نتمشى على النيل فإذا بى أرى أبى يعانق صديقا له التقينا به صدفة ويناديه «بباصديق العمر» ورأيت شوقا يفيض من عيونهما وحبا ينطق به وجهاهما، وما أن انتهى اللقاء الحار حتى سألته: «عن هذا الصديق الحبيب فقال إنه زميل دراسته وصديق عمره مصطفى مرعى» فقلت «كيف تحبه كل هذا الحب ولا تراه إلا صدفة» فقال «إنها الحياة تباعد بين الناس ولكن لا تستطيع أن تنزع الود من قلوبهم ولطول عملى فى الأقاليم قلت لقاءاتنا ولكنى أراه دائما عندما أكون فى القاهرة» وقص على كيف تعرف على مصطفى مرعى.. وقد كتبها فى الخطبة التى أعدها لاستقبال مصطفى مرعى بعد ذلك بعشرين عاما، وذهب قبل أن يلقيها واترك قلمه يصف التعارف «تلاقينا فى مدرسة الحقوق وكانت الثورة الكبرى قد اندلعت فى البلاد عامة فظاهر أهل البلد أجمع، ثم اختلف زعماء البلاد اختلفوا أى التدابير أسرع وأكفل لتحقيق الآمال؟ كان طلبة كلية الحقوق فى طليعة الطلبة الثائرين.. وكانوا جميعا إلا قلة قليلة منهم يؤمنون بأصدق الإيمان بزعامة الزعيم الخالد سعد زغلول - تستهويهم وتسحرهم كلمته، ولم أكن منهم، وكان مقهى مدرسة الحقوق ندوة للطلبة يتشاورون فيه.. وذات صباح كنت جالسا بهذا المقهى.. وعلى قيد خطوتين منى جلس زعماء الطلبة يديرون بينهم الحديث ويناقشون فى الخطط والتدابير وإذا بواحد منهم قامت بعد ذلك بينه وبينى صداقة رحمه الله يقول وهو يشير إلى بإيماءة طرف

لم يخفها: «احترسوا فإن إلى جوارنا خصما لنا ولا اجتماعنا غير مأمون الجانب» ولعل بعض الحاضرين قد وافقوا على هذا الرأي ولكن واحدا منهم اعترت طلاقة وجهه مسحة من العبوس ثم أجال نظرات في إخوانه جميعا ثم بدأ يتحدث في خفوت وهدوء.. تحدث عاتبا ثم لائما. ثم أخذ يتناول حرية الرأي وحرية التعبير، وحرية الإنسان في اختيار الطريق الذي يتلاءم مع نفسيته واقتناعه مدافعا عن ذلك الذي وجهت إليه تلك الإشارة النابية، وحين عورض اندفع في صوت متهدج يؤيد آراءه. ويقول إن اختلاف الآراء دليل على حيوية الأمة، وبرهان على محاولات كريمة تنشد الوصول إلى الحق، ولست أذكر كلمة الزميل على وجه الدقة ولكنني أذكر كلمة وكأنما سمعتها منه أمس قال: «فليؤمن كل منا بما آمن به وهذا خير. أما عبادة الأشخاص.. والتسابق إلى تأكيد ما يقولون وتقديس ما يصنعون فإنها علامة إسفاف متهافت يصيب الأمم والشعوب» ثم قام والغضب والأسف في وجهه، ملامح هذا هو مصطفى مرعى كما عرفته في أول لقاء، وظل على ما هو عليه إلى يومنا هذا «وانتهى وصف أبي لصديق عمره».

ورثاه مصطفى مرعى بعد مقابلتنا له على النيل بعشرين عاما في المجمع اللغوي، وكان أبي قد أعد خطبة لاستقبال صديق عمره في المجمع، وأجل سفره إلى الخارج مرتين ليتمكن من إلقائها بنفسه، إلا أن الله دعاه إلى جواره ولم يلقها، وقد طلب إبراهيم بك مذكور

عضو المجمع من بهى الدين باشا بركات أن يسألنى إذا كان أبى قد
أتم الكلمة ، ليلقيها ثروت أباطة بدلا منه ، وكانت لفظة رقيقة . وألقى
ثروت الكلمة وقام مصطفى مرعى وقال وصال وجمال وتكلم عن
الفلسفة والأدب ثم تكلم عن والدى كصديق وذكر مناداته له «بيا
صديق العمر». وهو نداء لا ينسى لأن نبرات الصوت كانت من
خفقات القلب ثم تكلم عنه كشاعر بلسان تنساب منه العواطف
المتدفقة وبقلب ينهل منه الأسى..

وأذكر بعد وفاة السنهورى باشا أقام المجمع حفل تأبين فى سنة
١٩٦٨ ورثاه أبى بقصيدة منها : -

ظلم الموت أن فى أحضانه
مرفأ للغريق فى أشجانه
ومجازا إلى جوار طهور
ساكب حوله سنا رحمانه
غيب الموت شافعى زمانه
وأصاب القانون فى برهانه
يعظم الخطب فى العظيم إذا لم
يرق راق إلى عوالى مكانه
نكس الفقه رأسه يوم أودى
وانطوى سامدا على احزانه

راض للباحثين جامحه
 الصوب وأرخی لهم عصی عنانه
 وحباهم من المراجع
 بالغيث تضىء الشروح فى هطلانه
 صفوة القول أنه عبقرى الجيل
 غير المسبوق فى ميدانه
 ذو حياء فى فضله حين بعض الخلق
 ذو خيلة على نقصانه
 جمع الشرق وحده فتلاقى
 فى ديبايح علمه وبيانه
 سادن العدل أعرض العدل عنه
 ساخرا عن يقينه وحصاته
 رأيه الحر عد من سيئاته
 والإباء الوقور من سقطاته
 حسد الحاسدين يفضى عن السفح
 ويرقى للطود فى شرفاته
 إن رأى الإنسان ضرب من
 العرض هما الأكرمان من حرمانه
 فإذا ساقه استطارت قوى
 الشر فألوت برزقه أو بذاته

وإذا البغى لم تزله فأهمل
 تفل الأيام حد شباته
 ليس حكما حكم يشق من
 الإرهاب مهواته إلى شهواته
 ليس شعبا شعب يقر على
 الضيم ويشفى غليله فى نكاته
 إيه عبد الرزاق أضفى عليك
 الله من فضله ومن رحماته
 وتولاك من رضاه بفيض
 يتوالى عليك فى جناته
 يكرم الله نافع الناس قبل المنطوى
 فى صيامه وصلاته
 جزع المجمع الوقور وهل
 يجزع إلا للصم من نكباته
 كاد لولا حياؤه وجلال
 العلم يروى أساه فى عبراته
 أنت حى وإن طوتك المنايا
 ومن الناس ميت فى حياته
 وأذكر أن مصطفى بك مرعى كلمنى فى التليفون حوالى الساعة
 لواحدة ظهرا وقال لى «أين عزيز؟ إنى أريد أن أقبله» فقلت إنه

لم يصل إلى البيت بعد فقال: «لقد قبلته فى المجمع مهنتا بالقصيدة ولكننى أريدك أن تقبله عنى ثانية فلقد كانت القصيدة فوق الإبداع. ولا يفوتنى مادمت قد تكلمت عن المجمع أن اذكر أن أبى قد دخل عضوا فى المجمع عام ١٩٦٢ وأن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد قد استقبله بخطبة قيمة أسوق منها هذه السطور: يقول العقاد: «من نحو عشرين سنة ظهرت فى أفق البيان العربى آية من آيات الشعر والمسرح: هى رواية «قيس ولبنى» لشاعر لم يعرف له عمل فى هذين الفنين قبل ذلك: وهو زميلنا اليوم بمجمع اللغة العربية الأستاذ عزيز أباطة. وكان من حظى أن أقدم تلك الآية.. كما كان من حظى أن أقدم صاحبها اليوم فى هذا المجمع فقلت يومئذ فى مقدمتها: مؤلف قيس ولبنى لو قضى عشرين سنة فى السعى إلى المكانة الأدبية التى يعرفها له الأدب العربى الآن لما كان ذلك بالكثير على تلك المكانة.. لأنه باتفاق الجلة من العارفين شاعر من شعراء الطبقة الأولى فى اللسان العربى.. ومؤلف من مؤلفى القصص التمثيلية المعدودين فى هذا الزمان، وتلك منزلة رفيعة لا يكثر عليها أن تدرك فى عشرين سنة. ولا فى عشر، بل عرف بها فى أسابيع قلائل بغير مكابرة من أحد ولا رغبة فى المكابرة ممن يستطيعها ويهواها. لأنه غنى بالجواهر الأصيل ولم يعن بالعرض المضاف، أو هو قد اهتم بالقدوة ولم يهتم بالتقدير الذى لم يتطلبه ولم يضع فيه وقته.

ثم تمت للشاعر النابغ عشر آيات قبل «قيس ولبنى» آخرها «قيصر» عصر عواهل الرومان ومن قبلها «قافلة النور» فى عصر الدعوة الإسلامية.. وأرى أننى أعود إلى تلك المقدمة فلا أغير منها كلمة وأعود إلى تلك القدرة التى تبينت لنا من المشاعر فى آيته الأولى فإذا هى لم تتغير فى الجوهر، وإن كانت فى ازدياد بتقدم ولا يتكرر، فكل ملامح القدرة المعهودة واضحة فى قيصر وضوحها فى «قيس ولبنى» كما تتضح ملامح الرجل الكبيرة فى صورة صباه. هل يراد بهذا إن شاعرنا بلغ الشأو أخيرا وكان دون الشأو بكثير فى بواكيره الأولى؟ كلا إنه قد ارتفع إلى الطبقة الأولى بين شعراء العربية يوم ظهرت له قيس ولبنى بغير مكابرة من أحد ولا رغبة فى المكابرة كما تقدم.

وربما كان للوظيفة حكمها فى هذا الانطواء الفنى مدى تلك السنين التى تقدم بها الشاعر فى أطوار الاستعداد والمراجعة، فإن المدير أو الحاكم قلما يناسبه أن يطالع الناس بنجوى فؤاده كل يوم فى الصحف السيارة ولكنه لا حرج عليه أن يرفع الستار حيننا بعد حين ليتحدث إليهم بألسنة الممثلين وأبطال الفن والتاريخ. لا عجب إذن أن يطالعنا الشاعر بملكة نمت وأينعت وأن نرى فى «قيس» كل مانراه فى «قيصر» من تمكن الأستاذية وطمأنينة اليد الصناع والخبرة التى انتهت من المحاولة إلى الحول، ومن التجويد إلى الجودة.

وانك لتقرأ عمله المسرحى وتقرأ له رأيه فى المسرح فتعلم أنه يهتدى مع السليقة برأى الناقد وذوق المشاهد. ويحسن الموازنة بين رأى ورأى، والمقابلة بين ذوق وذوق، فيعطى الصناعة حقها. ويصدر عن السليقة قبلها، ويكون أول الناقدین لعمله فلا يصيبه الناقد. إن أصابه.. إلا حيث يتقيه.

ولكننا نستقبل الزميل الجديد فلا يفوتنا أن نذكر له فضلا سابقا إلى إنصاف اللغة العربية وجلاء الحقيقة عن طبائع أهلها.. فقد طالما قيل إن شعر المسرح لم يظهر فى آدابنا قديما لضيق فى حظيرة القريض العربى وقصور فى خيال أبناء العربية، ولقد طال الرد على هذه الدعوى وتكرر القول ببطلانها، وعاد المؤرخون بالسبب إلى طبيعة البادية فى مجتمعها وشعائر دينها. فالزميل الجديد يؤدى بمجاميعه العشر قسطا فوق قسط الشاهد الواحد فى هذه القضية الراححة، فإن له لنهجا من النظم البليغ يلتزم فيه شروط القريض ويتحرج فيه مما يباح للشاعر الموجز والمطيل، ويودعه ما يريد على السنة الرجال والنساء، وأمزجة الخيرين والأشرار، وخلائق العلية والسواد.. ومواقف القوة والضعف والضحك والبكاء، والرضى والحزن، فيتسع لما أودع، ويجاوز مدى التعبير إلى غاية من البيان المشبع والأثر البليغ.. ويكاد أن يلتزم مالا يلزم فى القصيد فيجرى الحديث الواحد على وزن لا يتعدد.. ويفرغ الموقف الواحد فى قالب لا يتشعب.. ويوشك أن يتحرج من قصر المدود ومد المقصور وهما فى سعة من العذر المقبول لكل شاعر وفى كل مقام.

إن اللغوى العامل - عزيز أباطة - لفى الرحب والسعة فى مجمع اللغة العربية.. رشحته له أعماله الفصاح، ولم يرشحه له صاحب الأعمال كأنما شاء أن يصدقنى اليوم كما صدقنى قبل عشرين سنة إذ كنت أقول ما أعيده الآن «إنه اهتم بالقدرة ولم يهتم بالتقدير، فلم يعرف الراصدون هذا الكوكب إلا وهو فى برجه الأسنى قد جاوز الأفق وأصعد فى سمت السماء».

وعلى ذكر المجمع اللغوى فقد حدث أن اجتمع فى القاهرة أعضاء المجمع اللغوى المصرى وكان عددهم يربو على المائة.. واصر أبى ألا يخدم ضيوفه على المائدة إلا أولاده وأولاده إخوته زيادة فى إكرامه لهم وقد شعر الضيوف بهذه اللقطة.. وأثرت فى مشاعرهم.. وكنا نخدم هذا العدد الضخم بسرعة ونشاط.. واهتمنا بكل ضيف على حده اهتماما بالغاً.. ولكننا كنا نتكلم ونضحك مع بعضنا البعض أولاد عمى وأخى وأنا أثناء تأدية العمل.. والظاهر أن أبى نسى أننا لسنا من المحترفين فأبدى ملاحظته على صوتنا العالى وعلى ضوضائنا.. فسكتنا وأتمنا عملنا بكل هدوء.. ولما خرج هذا الجمع الخفير من حجرة المائدة جلسنا نحن أهل البيت لتتناول غداءنا.. وإذا ببعض أعضاء المجمع يقتربون منا ويقولون بلطف:

- إن عزيز أباطة صمم على ألا يخدمنا إلا أولاده وهانحن أولاء مستعدون أن نخدمكم بدورنا..

وكانت لفتة رقيقة.. ردا على لفتة كريمة.

خطف الموت أخاه عثمان ولما يبلغ الأربعين. فجزع أبى وأذهلته
الصدمة ولازمته آلام الكلية شهرا بأكمله، وأخذ أولاد أخية تحت
جناحه، ووجد فيه أشرف وهو ابن أخيه أبا ومعزبا يفضى إليه
بذات نفسه فيجد قلبا صاغيا ومجيبا.. وعندما فكر فى الزواج أتى
إلى عمه فوجد عنده الترحيب والرعاية والمساندة وكان أول سؤال
سأله لابن أخيه : أهى جميلة..؟

وهذه أبيات من رثائه لأخيه عثمان منها:

أخى وابنى وأكرم أصدقائى
وأدناهم إلى نفسى مقيلا
ولدت على يدى فكيف تمضى
وأبقى بعدك الدنف التכולا
هو القدر الذى يرمى. فلولا
يقينى. قلت: لم يهد السبيلا
سلخت صباك بين يدى وعينى
وفى حضنى درجت فتى صقيلا
إذا الآباء حملهم بنوهم
وكم زل الصبا - الشجن الدخيلا
فأقسم ما لمحت عليك عابا
وقد لابسك الزمن الطويلا

ورف لك الشباب فكنت بدعا
من الفتيان متئدا جليلا
كملت فكنت أوفى الناس صدقا
واسرعهم على حق نزولا
أخى وابنى وأكرم أصدقائى
وتزدان الدنيا بابن صديق
وكننت إذا أراك أقول حسبى
سناك يرف فى ليلى السحيق
وأسمع همس خطوك حين تهفو
إلى غرفى مع الليل الغسوق
واققبل الصباح وأنت منح
إلى بوجهك الضاحى الطليق
وتحمل عبء أولادى وعبئى
فمن لى اليوم بالبر الوثيق
تأس أباك أشرف وامتلثه

ورم قلعات سؤدده السموق

وقد أتم فى القاهرة مسرحية «الناصر» وظهرت على المسرح عام ١٩٤٨ هـ «شجرة الدر» ومثلت عام ١٩٥٠ و «غروب الأندلس» ومثلت عام ١٩٥٢ و «شهریار» ومثلت عام ١٩٥٥.. وقد أخرجها جميعا الأستاذ فتوح نشاطى ماعدا رواية «الناصر» فقد أخرجها الأستاذ زكى طليمات.

وكان الجمهور فى ذلك الوقت يحب الروايات الشعرية ويقبل عليها بل ويتجاوب معها تجاوبا يلفت النظر. غير أنه فى السنوات الماضية منذ سنة ١٩٥٥ حرم المشرفون على المسرح الناس من هذه الروايات بحجة أنها لا تصل إلى الجمهور العادى ولست أرى رأيهم.. فلو أنهم رأوا دار الأوبرا وهى تعرض على مدى شهرين أو يزيد كلا من «قيس ولبنى» و «العباسة» و «الناصر» ولو أنهم رأوا إقبال الجمهور وهو يتزايد يوما بعد يوم.. ولو أنهم سمعوا كلمة «الله» وهى تعلقوا استحسانا وإعجابا بالشعر، لو أنهم رأوا كل هذا لما أصدروا هذه الأحكام القاطعة. وأسوق هنا مثلا يؤيد كلامى سمعته من السيدة أمينة رزق وكتبه الأستاذ فتوح نشاطى فى كتابه «خمسون عاما فى خدمة المسرح» وهو أن الوزارة قررت أن تُحلّ الفرقة القومية فى عام ١٩٤٦ لقلّة إيراداتها، فطلب المخرج فتوح نشاطى مهلة حتى يتم إخراج «شجرة الدر» لتعزيز أباظة بطولة أمينة رزق وأحمد علام، وافتتحوا بها الموسم ونجحت نجاحا باهرا وأنت بإيرادات خيالية، وعدلت الوزارة عن الحل، واستمرت الفرقة القومية.

وفى أوائل عرض مسرحية «الناصر» كتب أنيس منصور فى جريدة الأخبار نقدا عنيفا للمسرحية وهجوما شديدا على أبى، ولم يكن عادلا كل العدل وكانت أول مرة أسمع فيها اسم أنيس منصور ولم أكن أتصور حينئذ أنه يمكن لأى مخلوق أن يهاجم أبى بهذا العنف، وظللت أكرهه أعواما وأعواما، ولكن صلته توثقت بعد

ذلك بأبى وجمع بينهما ود أساسه الحب والإعجاب، وأزالت الأيام ما فى قلبى من غضب، وعرفته وعرفت زوجته، فلم أستطع إلا أن أعجب به أديبا وإنسانا.. وبزوجته صديقة من أجمل الناس خلقا وأخلاقا.

وبعد سنوات من ظهور المسرحيات جاءت الثورة ونال أبى الجائزة التقديرية عام ١٩٦٣ وخطب يوم الاحتفال بتوزيع الجوائز ودافع كعادته عن لغة القرآن. اللغة التى يجتمع حولها العرب أجمع، وعرض بمن يدعون للتقليل من شأنها والتخلى عنها، وقال عنهم إنها «فئة قليلة العدد - كثيرة العدد» فثارت ثائرتهم وظهرت الجرائد والمجلات وقد أرغب وأزيدت وكانوا منتشرين فيها حينذاك.

وطالعتنا مقالات تهاجم هجوما شريفا، وبعضها أو القليل منها هاجمت هجوما مسموما وحدث يوما والحملة على أشدها أن فتحنا التليفزيون فتصدى لنا رجل يلقي زجلا كان قد فاتنا أوله، وكان ثائرا متوتر الأعصاب، فقلت لزوجى، بالحاسة السادسة - هذا الرجل يهاجم أبى، وبعد ثوان أفصح وأبان وعاب على والدى تحمسه للفصحى ووقوفه إلى جانبها وسألت إحدى المجلات مجموعة من الشعراء اليساريين عن رأيهم فى خطبة أبى والواضح طبعا أن السؤال كان لتشجيع هؤلاء الشعراء على مهاجمتها، وقد هاجموه فعلا، ولكن فى رحمة وفى حب، وطلب منى أبى أن أقرأ

عليه رأى شاعر بعينه فقرأته عليه وأحسنا أنه كالفأر فى المصيدة، فلا هو يريد أن يتخلى عن مذهبه، ولا هو يريد أن يسيء إلى أبى، فقال أبى باسماء، يكفينى هذا منه. وأخفى أبى عنا سبب سؤاله ولكننى عرفت بعد ذلك السبب وأنى اليوم لن أذكره إكراما لرغبة أبى فى أن يخفيه.

وأذكر أن أحد الصحفيين قال إن شطرة واحدة من زجل صلاح شاهين بشعر عزيز أباظة كله والشطرة هى «ملايين الشعب تدق الكعب».

شاءت الأيام أن نسكن مع أبى فى بيت واحد فى المعادى، ويكفى أن أقول إنه لم يتدخل مرة فى شئوننا، ولم يسأل من أين أو إلى أين إن لم نخبره نحن. إذا نزلنا إلى طابقه رحب بنا وسعد، وإذا لم ننزل تركنا وشأننا إلا إذا أحس أن بنا تعباً أو ضيقاً.

كان بفطرته رجل بيت. يحب بيته ويقدم الأسرة بجمع شملها ما استطاع إلى ذلك سبيلا وكان له مكان خاص فى حجرته لا يغيره وبجانبه كتبه الأثيرة وخصوصا «ديوان البحترى» وإن حاولنا أن نستعيره رفض قائلا «إلا البحترى ما أعرفش أعيش من غيره». لست أنساه فى مكانه هذا إلى جانبه منضدة عليها أوراقه وأقلامه، وخلفه عمود عليه لمبة للإضاءة، وعلى الأرض وحول قدميه كتبه ومراجعته وكلب أولادى لجأ إليه وآمن عنده، وفضل الاستكانة إلى جانبه عما يلاقيه من العنف والإجهاد مع أولادى، إنها صورة

جميلة لفنان أحب طول حياته البساطة، ولم يكن فيها مكان للغرور
ولا للادعاء..

وقد تأثر أبى تأثراً شديداً عندما مات هذا الكلب، ورثاه بقصيدة
أهداها للفنان الكبير الأستاذ صلاح طاهر وحرمه لأنها جزعا جزعا
شديداً عندما مات كليهما - ولأنهما مثله فى شفافية النفس ورقة
القلب. وهذه بعض من أبيات القصيدة:

إنى فقدتك صاحباً بادلته الحذب النديا
ما إن خرجت سعى فلاحقنى وودعنى حفيا
وإذا رجعت هفا إلى وهز عطفيه وحييا
إن لم أأطفك النهار حزرت ماأنحى عليا
وعلمت أنى حامل هما تواردننى فأعيا
فتدور حولى كالذى يستطلع الشجن الخفيا
وتمد رأسك فى يدى وفوك يعبث فى يديا
أنت الصديق العف لاجمى الوداد ولاتغيا
كلا ولم تعتب إذا جافاك تدليلى مليا
لم تمنح الإخلاص كالإنسان مأجورا دنيا
فاذهب كما ذهب الوفاء طواه لؤم الخلق طيا

وفى المعادى كان للبيت حديقة واسعة يدخل منها الفئران إلى
داخل المنزل، وقد أقام فأر صغير فى حجرة المعيشة الخاصة بأبى
وكلما حاولوا طرده هرب مسرعاً ثم يعود إلى مكانه المعهود تحت

مقعد والدى.. وكانت زوجة أبى ولا أحب أن أسميها بهذا الاسم- لأنها كانت أما لنا بحق.. كانت تنظف الغرفة قبل أن تأوى إلى فراشها حتى لا يبقى فيها أى أثر لطعام.. ليبأس الفأر ويرحل. ولكن بعد دقائق يعود أبى ويضع له بعض الجبن والبسكوت شفقة ورأفه بالفأر الصغير الجوعان المذعور.

وكان فى أول إقامته معنا يفزع عندما يسمع صراخ أولادى وشجارهم ويتصور أنه قد ألم بأحدهما مكروه، ولكنه مالبت أن اعتاد ذلك، وانشغل بهم وتبنى آراءهم.. وانضم إليهم على، ووجدوا هم عنده الليونة وسعة الأفق فتحصنوا به وقاومونى بسلطانه على، كنا حوله فى المعادى، حين رمته الأقدار بما يهدد كيان كل قوى ويزلزل نفس كل ذى بأس، ولقد كان قادرا على تحمل المسئوليات ويعف عن الكلام ويسمو عن الشكوى مهما أصابه، وما أكثر ما يصيب الناس - ملأته الصدمة بالمرارة. واهتز أول الأمر، ثم واجه الواقع وحده، ومشى إليه وهو فوق السبعين يحاول أن يجد منفذا يبدأ منه المقاومة، وجد المنفذ واقترب من الحل، وساعده صديقه الكردي رضوان فى ناحية اختصاصه بكل قواه، وقاوم ونحن من حوله نغديه بأرواحنا، ولكن لا نستطيع له شيئا.. ووقفت زوجته كعادتها إلى جانبه موقفا كأعظم ما تكون المواقف، ولكن أين لهذا الإنسان المرهف أن يجد العزاء فيما أصاب آماله وأمانيه، وكان لا يكاد يخرج إلا لتذليل عقبة من العقبات التى رمى بها، وكنا لا

نتركه - كنت إذا نويت الخروج وتهيأت له - ما أن أصل إلى باب الحديقة حتى أجد نفسى مرتدة على أعقابى لأكون إلى جانبه، ولكن الله رحمان.. فقد خرج من تلك الغمة ثابتا، ولكنه أعطى من عواطفه ومن ماله ما طاقة له به.

وكانت قد جمعت بمحمد ظاهر أباطة صلة عمل، واتخذته سكرتيرا له عندما كان رئيس مجلس إدارة في مطبعة مصر، واعتبره ابنا له وجاءنى محمد فى هذه الأيام العصيبة يقول ولا يحاول أن يغالب ثورته: «أنا لن أسمح لأحدكم أن يسبب كل هذا الغم لأبيه يخيل إلى أنه فى إمكانى أن أقتلكم كلما رأيته على هذا الحال. أنتم لستم جديرين بأن تكونوا أولاد عزيز أباطة» ولقد حرمتنا الأيام من هذه المشاعر الجياشة، فقد اختطف الموت محمدا ولم يتجاوز السابعة والأربعين من عمره..

وحدث أن سافر أبى إلى الخارج وقضى شهورا ثلاثة هناك، وكنا لانزال نسكن فى بيت واحد.. وطالت علينا غيبته وشعرنا بوحشة شديدة بدونه، ولما عاد وسمعنا صوته فى الصباح الباكر يتحدث مع البستاني بلهجة كلها ود وبساطة شعر زوجى ثروت أباطة بالفرحة تملأ نفسه وأرسل من تأليفه أبيات من الشعر وهى:

طربت بصوتك النادى

يرن بشارع النادى

فقد كنا على شوق

فروى شوقنا الصادى

ووقعهما باسم ابننا دسوقى :

وعرف أبى طبعاً أن ثروت هو الذى كتب البيتين وسعد بهما

وقال لى :

- اوعى تفتكرى أنك بس اللى بنتى وفى مناسبة مماثلة أرسل
إليه ثروت هذه الأبيات من تأليفه أيضاً يقول فيها :

بقربك تزدهى الدنيا

ويحلو العيش والأمل

مذيع حصننا فيها

ونضر نبتنا خضل

فإن مالت طرائقها

ذكرناكم فتعتدل

وكنا نستقبل فى حديقة المنزل أولاد أخيه وأطفالهم وكان يسعد

بزواره ويخرج من وحدته وينسى ما به .

وفى المعادى كتب «إشراقات السيرة الذكية» فقد اقترح عليه

عبد الحميد جودة السحار - رحمه الله . أن يكتب السيرة النبوية

شعرا ، ثم تصور سينمائيا وتغنيها أم كلثوم مع عبد الوهاب فلاقت

الفكرة قبولا فى نفسه وكأنه كان ينتظر هذا الاقتراح ، ولم تمض أيام

إلا وقد نادانا لنسمع ما كتب، وأخذ يقرأ علينا، وكانت هذه عادته، ويقول لزوجى ولى وإخوتى «أنتم جمهورى» ويأتى صديقه أنور أحمد والدكتور الدمرداش أحمد ليسمعا معنا ما تم من السيرة النبوية، وتجمعنا الحديقة، وتمر الساعات لا يكاد يشعر بمرورها أحد. وأذكر أنه عندما كان يكتب آخر أبيات فى السيرة النبوية كان أولادى يديرون إسطوانة لاوبرا «لاتوسكا» وهى تغنى وتصرخ وتبكي حبيبها بالإيطالية. والموسيقى تعلق وتعلو وتصاحبها إلى أعلى الدرجات، وفى نفس الوقت كان زوجى يصرخ فى أولاده أن يترفقوا بجدهم. ووسط كل هذا كان أبى يكتب بهدوء عن النبى العربى فى المدينة.. فذهبت إليه وأنا أرثى له وقلت: «كيف تكتب والحال هذه؟» فقال برقة: «لا عليك، فإنى لم أسمع من ضوائك شيئاً»

وجاء أنور أحمد يوماً لزيارة أبى كعادته، وأثناء الحديث سأله:

- أرنى ياباشا شعرك الذى لم ينشر.

- إنها قصائد كثيرة ولكنى أظن أنها لا تهم أحدا.

- كم عددها.

- لا أذكر.

- أستطيع أن أراها؟

أتى أبى بحقيبة بها كل قصائده، فقال أنور أحمد:

- حرام ياباشا تبقى كل هذا فى الظلام.. إنه يمكن أن تطبعها فى ديوانين.

- إننى لا أرى داعيا لنشرها.

- ليس من حقك أن تحبس هذا الشعر عن الناس، ولن أخرج من هنا حتى تعدنى بنشره فى ديوان.

وأنتهى إلحاح صديقه عليه بموافقته على أن يراجع معه قصائد شعره. وجاء أنور أحمد فى اليوم التالى، وأحضر له أبى الحقيبة السوداء التى تضم الدفاتر والكراريس والأوراق التى سجل بها شعره الذى نظمه فى الرثاء والغزل والإخوانيات ووصف ما رآه فى رحلاته الكثيرة وانفعلت به نفسه، وفى المناسبات الوطنية ومهرجانات الشعر العربية، وكثير من هذه القصائد لم ينشر ولم يكن فى حفل ولم تطلع عليها عين إنسان.

وقضى الصديقان يوما كاملا فى بيتنا بالمعادى يراجعان ويرتبان وينسقان، ووجدوا بعض القصائد تحتوى على فراغات لم تكتمل، فوعد أبى بإكمالها، وصمم على أن يكتب له أنور أحمد مقدمة للديوان.

ولكن شاء القدر ألا يصدر الديوان فى حياة أبى، فقد اختاره الله إلى جواره قبل إتمام ما وعد به صديقه، فسلمت أنور أحمد حقيبة الشعر، فقام بإعداد الديوان للطبع وسلمه إلى حسن الزين صاحب

دار الكتاب اللبناني التي طبعته فى مجلد واحد يضم أربعة أجزاء، مكتوبة كلها بخط اليد، على ورق فاخر، وبإخراج فنى رائع.

وكانت دار الكتاب اللبناني هى التى طبعت قبل ذلك جميع مسرحيات أبى وديوان «أنات حائرة» فى مجلدين بعنوان «مسرح الشعر» لحساب الحكومة الليبية بتوجيه من الملك إدريس السنوسى. وكان ذلك بداية صداقة وطيدة ربطت بين أبى وبين الأستاذين حسن الزين وابن عمه محمد سعيد الزين صاحبى دار الكتاب اللبناني وقد دعاهما أبى إلى بيته فى المعادى، كما قدمهما إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين الذى وقع معهما عقداً لنشر مجموعة مؤلفاته الكاملة فى بضعة عشر مجلداً. وسافر أبى إلى لبنان بدعوة من دار الكتاب اللبناني لحضور معرض الكتاب الدولى الذى نظّمته الدار واشتركت فيه منظمة اليونسكو حيث ألقى قصيدة، وكان موضع حفاوة كبيرة، وتوثقت الصداقة بينه وبين شاعر لبنان الكبير سعيد عقل، الذى جاء إلى مصر بعد ذلك وألقى قصيدة رائعة فى الحقل الكبير الذى أقيم لتأبين أبى، وهى القصيدة المنشورة فى ختام هذا الكتاب.

وطوال السنوات التى أقمنا فيها معا فى المعادى كان أبى يذهب يوم الثلاثاء من كل أسبوع إلى بيت صديقه حمد الرجيب سفير الكويت فى مصر. يسهر عنده مع أقرب الأصدقاء ويستمعون إلى الموسيقى الشرقية التى يحبونها جميعاً، والحق أن حمد الرجيب

ظل إلى آخر يوم من حياة أبى صديقا من أوفى الأصدقاء، وقد شاء أن يؤكد هذا الوفاء ويعلنه فألف موسيقى «قافلة النور» التى أعدها أنور أحمد للتليفزيون عن رواية أبى.

وكننت إذا دخلت معه فى سهرة عند أصدقائه رأيت العيون تتجه كلها نحوه. وكننت أرى السيدات يولونه عناية خاصة. وكان يسعد بها، ويستزيد منها بما وهبه الله من حلاوة الحديث وسماحة الوجه.

تقول صديقة لى وهى سيدة فاضلة وزوجة مثالية. تقول..

– لم أر فى حياتى أبهى من أبىك. إننى حين أراه سائرا فى شوارع الزمالك أسير خلفه ثم أذهب إلى بيتى وأقص على زوجى ما فعلت، وإذا قابلته مرة أخرى. تبعته أيضا وكررت الاعتراف..

وكننت كلما قصت على أبى هذه القصة قال ضاحكا

– أهى دى الستات اللى بتفهم.

لم أر أبى يكتب فى حجرة خاصة أو على مكتب، وإنما كان يكتب على ركبتيه وبملايس البيت ويحب أن نكون معه، ويتدخل من آن لآخر فى حديثنا، ليشعرنا أنه يتابعنا، وأننا لانضايقه. وكان يحلو له أن يسهر معنا ويحدثنا عن ذكرياته فى مجلس النواب ١٩٣٦ عندما كان فى المعارضة ويكلمنا عن نواير الانتخابات فى الثلاثينات. وقد روى لنا أنه لما بلغ السابعة من عمره أدخلوه كلية

فيكتوريا في الإسكندرية مع خمسة من أبناء عمومته، وكان الدكتور محمود أباطة أو الذي أصبح دكتورا فيما بعد أكبرهم سنا. يبلغ العاشرة وكان يستغل فارق السن ليصادر أموال إخوته وأبى معهم. وكان يأمرهم أن يقوموا بخدمته وإعداد سجادة الصلاة كلما أراد الصلاة.. وأن يرتبوا سريره بدلا منه وفرض على المقصر غرامة هي مصروف يومه، وكان المساكين يتسابقون لإرضائه ولكنه كان يبدي استياءه من خدماتهم حتى تتجمع ثروتهم الصغيرة في حافظته هو وكان أبى يرويها أمام الدكتور محمود، وكان يضحك من سذاجة أبى وزملائه.

وحكى لنا أنه عين مديرا لأول مرة فسي القليوبية، وذهب إليها حينذاك وجهده. وأقام عند خالته حرم الدكتور حسين أباطة وكانت تقيم مع زوجها هناك، ولأنها تصغره كثيرا كان دائم المزاح معها. وفي يوم بعد عودته من المكتب صعد السائق والشاويش ليحضرا الحقيبة فوجدا الباشا المدير يجرى حول المائدة وخالته تجرى وراءه مهددة متوعدة، فصعق السائق، وذهل الشاويش.

وكان يحكى لنا هذه القصة ضاحكا أنه يوم وفاة النحاس باشا وكان ذلك بعد الثورة بسنوات وكان هو في الإسكندرية، ولم يكن في وسعه أن يلحق بجنازة النحاس باشا في لقاهرة إلا إذا ركب قطار الصحافة الذي يقوم في الساعة الرابعة صباحا، وليس به إلا الدرجة الثالثة، ولحق بالقطار وركب في الدرجة لثالثة. وتعرف عليه بعض

الركاب، واخذوا يتعجبون.. ويتغامزون فيما بينهم، ولكنه كان مصمما على السير وراء النحاس باشا فى مماته، ولم يكن قط وراء النحاس باشا فى حياته، بل إنه لم ينتسب إلى حزب الوفد حين كان طالبا وكان الوفد طوفانا..

وحكى لنا أنه كان فى باريز فى صيف سنة ١٩٥١ وتلقى من شامل دسوقى أباطة برقية يحدد فيها موعد وصوله إلى باريز.. كان شامل فى العشرين وحصل على بكالوريوس التجارة ويريد الحصول على الدكتوراه من فرنسا، وذهب أبى إلى لقائه. لكن الطائرة لم تصل. وانتظر أبى طويلا لأنها كانت أول سفرة لشامل وأول مرة يغادر فيها مصر، ولكنه لم يصل. فعاد أبى إلى الفندق، ولما وصل شامل ولم يجد أبى فى انتظاره ارتبك وأرسل برقية إلى أبى قائلا أو صائحا باللغة الإنجليزية التى لم يكن يعرف غيرها من اللغات الأجنبية «عمى أنا ضائع» فسارع أبى إليه وعاد به إلى الفندق وأخذه معه فى حجرته..

وليزيل عنه الحرج ورهبة الغربة.. مشى معه فى شوارع باريز.. واصطحبه إلى بيوت الأزياء ليريه المانيكان، وهن رائحات غاديات ولكن شامل لم تعجبه باريز.. وقال إن قريته «غزالة» أجمل بكثير.. ولكنه غير رأيه بعد أن أقام بها سنوات أربع.

ومن ذكرياته التى يعتز بها، يوم زارته أم كلثوم وكانت قد فاجأته نوبة قلبية فى السودان سنة ١٩٥٨ وعاد مسرعا إلى مصر، ثم

جاءت أم كلثوم وجلست إلى جانبه تقرأ له القرآن وترقيه.. وقد وصفها في قصيدة في الحفل الذي أقيم لها حين عادت من أمريكا سنة ١٩٥٤ بأبيات منها:

أصغى لك الله في علياه قارئة

في غفوة الفجر آيات الحواميم

تقلين مبتلة الآماق خاشعة

والقلب يذرف دمعا غير مسجوم

ما أنت في الناس روح عذبة لطفت

أذابها الله في عليا الترانيم

ما أنت إلا اعتذار الدهر قربه

لكل عان ومظلوم ومكـلوم

سمراء من قرية من كان يعرفها

في أي ناحية أو أي إقليم

هزت ربي الشرق هذا فاستدار لها

وقال. من تلك؟ في فخر وتعظيم

تلك التي ازدانت الدنيا بها فعدت

غذية باسمها عن كل تقديم

طمأى انجبت للأجيال معجزة

عزت وطالت فكانت أم كلثوم

جاءته ابنة صديق حميم له كان قد توفى بعد فرض الحراسة عليه ، وكان من أغنى أغنياء الصعيد وكان يتمتع بسلطان واسع فى مركز من أهم مراكز أسيوط. بنى هناك محكمة ومدرسة ومستشفى على حسابه الخاص إلى أن وضع تحت الحراسة وزال عنه كل شىء ، واختاره الله إلى جواره جاءت ابنة هذا الرجل بعد طلاقها وطلبت منه أن يجد لها عملا ، أخذها بين ذراعيه وبكى كالأطفال ، وذهب معها إلى إحدى المؤسسات ولم يخرج إلا وقد ضمن لها العمل. سافر أخوه أحمد للعلاج فى باريز.. وكان حب أبى لأخيه لا حدود له ولا نهاية.. اجتمع فيه حب الأب لابنه والأخ لأخيه ، وكنت أقول له إنك تحبه أكثر من أولادك ولم يكن يدافع عن نفسه ، ولما سافر كان من المتوقع أن تجرى له عملية هناك وكان أبى فى بيروت فى مهرجان شعر أقيم تأبيننا لبشارة الخورى فكلمنا ليخبرنا أنه إذا تقرررت العملية فسيسافر إلى باريز من هناك وعلينا أن نرسل له الملابس الشتوية ، وأعتقد وهو فى هذه السن إنه فى إمكانه أن يكون رفيقا فى مستشفى ، ولكن الله سلم ولم تجر العملية.

ولبنات أخويه عنده مكانة خاصة ، فإذا جئنه أخذهن على ركبتيه فإذا بثلاث شابات : حورية ولبنى ونظيمة. يتنافسن على الجلوس على ركبته ، وهو سعيد بذلك يجامل هذه ويداعب تلك بابتسامة حلوة وكلمات عذبة ، وقد رأيتة يوم خطوبة نظيمة وكانت

قد أعلنت في بيته في المعادى، رأيته واقفا في الصالون يضع السجائر في الأطباق الفضية بنفسه مخافة أن ننسى أو نسهو.

وقد أراد أولاد إخوته أن يجاملوه في هذه المناسبة فأخذوا يرددون الأغنية التي قيلت له يوم زواجه الأول وهى أغنية كان يرددتها الفلاحون في الربعماية حينذاك يابن عمى ياقصب منديلى فطرب وهشت أساريره، وابتسمت عيناه وامتلات بالذكريات، وأخذ يصحح لهم اللحن ويغنى معهم.

وقد زار أبى السعودية والكويت وتونس والمغرب والأردن وليبيا قبل ثورتها، وكان الملك إدريس يحبه ويقربه إليه، وأحس بالتكريم والتقدير فى جميع البلاد العربية. فهم الغيورون على لغة القرآن، وهو من حافظ عليها وحمل حناها. وهم عرب يقدرون الأدب والشعر.. والأنساب، وكان كلما سافر فى مؤتمر هناك استقبلوه بالترحاب، واستقبلوا شعره بالتقدير والإعجاب، وكان هو يعجب بالجواهرى شاعر العراق وبأبى سلمى شاعر فلسطين ويعمر أبى ريشه الشاعر السورى ويدوى جبل، وكان حينما يجتمع بصديقه عبد المنعم الرفاعى شاعر الأردن الكبير ورئيس وزرائها السابق يطلب إليه أن يسمعه بعضا من شعره فى الغزل، فيقول الرفاعى غزلا رقيقا صادقا نابعا من أعماق الأعماق ويهتز أبى ويستزيده، وتمر الساعات فى حب وشعر وغزل وقد ذهب أبى مع أخيه أحمد وزوجته إلى عمان للرزاء فى صديقهم حيدر بك شكرى، وقد رثاه أبى بقصيدة ألقيت

فى ذكرى الأربعمىن؁ واستقبله أهل عمان لقاء حرارة؁ وقامت نهلة القدسى بواجب الضيافة فى بىت أهلها هناك؁ وكان ينادىها دائماً. بىابنة العم.

وقد زار هناك الملك حسين ولم يتركه صدىقه الدكتور عبد المنعم الرفاعى لحظة. وسهرا اللىالى معا فى بىته فى عمان.

وقد قالت لى زوجة أخيه. إن أهل الأردن قد توافقوا علىه فى الفندق وإن السىدات أقمن له ندوة نسائىة وطالبنه أن ىلقى. قصائد من أنات حائرة فى رثاء زوجته الأولى وابنة عمه؁ وكانت ندوة كلها عواطف وذكرىات. كرمت السىدات فىها ضىفهن؁ وكرمهن هو حىنما كرم المرأة فى دىوانه.

لىس من حقى أن أتجاهل الإلهام فى حىاة أبى؁ فقد قال مرة فى حدىث صحفى ردا على سؤال: إذا قلت إنه لىس هناك ملهم لما صدقتنى؁ ولما صدقنى القراء؁ واذا قلت إن هناك ملهما لأخرجت بعضا من الناس والواقع أن قلبه قد ملأته أقدس المشاعر وأسامها.. وتدفق الشعر من نبضاته عذبا صادقا وملتهبا؁ وتلاقت روحه بروح ملكها الحب وفاض بها الإعجاب والتقدىس؁ واستطاعت بما أغدق الله علىها من هبات أن تملأ وعىنه وحىاته؁ فعاش أيامه آمنا آمىنا؁ وظلت هذه الروح تحىا فى خفقات قلبه إلى أن كف هذا القلب عن الخفقان.

كيف أصبحت وماذا تفعلين
 عصف البعد بقلب الغائبين
 أنت فى إشراقة الفجر معى
 كلما رف سناه تشرقين
 فإذا الليل احتوانى ستره
 فلهاب النار بى ماتشعلين
 أجزع الليل وما أطولاه
 وأكف العبارة موصول الحنين
 ساهدا والسهد روح وضمنى
 هل عرفت السهد؟ لا.. لا تعرفين
 إنما السهد وقاك الله من وقده
 من صلوات العاشقين
 إنما السهد لمن غيرته
 اقلقته فمضى لا يستبين
 إنما السهد لمن هان على الفه
 وهو سليل الكسابين
 حمل الهاتف لى عنك صدى
 خاضع النبيرة مخمور الأنين
 خلته صوتا من الخلد زكا
 مثلما يزكو ابتهاال المرسلين

عذلونى فيك جهلا فاغفرى

سقط الجهل ودعوى الجاهلين

لج بى حبك فودا طفلة

والتظى حبك عند الأربعين

ليست الزهرة فى برعمها

إنما الزهرة فى يوم تبين

والهلال النضو هل يفتننا

فى زها مولده؟ أم بعد حين

لم يزدك العمر إلا فتنة

كالطلا تعذب فى حضان السنين

كيف أصبحت وماذا تفعلين

عصف البعد بقلب الغائبين

كان أبى يسافر إلى أوروبا كل عام وله شقة صغيرة فى لوزان يستأجرها فى الصيف وتجميلها زوجته فتبدو أنيقة رغم بساطتها، وكان يدعونى لقضاء شهر هناك.. ولا أنس أول سفره لى معه، فقد كان يشكو من آلام روماتزمية فى كتفه وقدمه.. ولكنه صمم على أن يصحبنى إلى متاحف لندن وباريس، وكان يجلس هو ويطلب إلى أن آخذ من الوقت ما أشاء ثم أعود إليه. وكنا نمشى معا فى شوارع باريس ساعات مع رشدى راشد، وهو شاب يعمل ويعد للدكتوراه فى الفلسفة، وقد أحب أبى وقدره وأحبه أبى وأعجب بذكائه ومثابرتة،

وعامله كأب. وكنت أدعى التعب من المشى حتى يرتاح أبى - ويجلس.. وليتأكد من أن الذنب ذنبى، وأنه هو قد فعل فوق ما يستطيع.

وهو فى السفر وبشهادة كل من صاحبه لا يفكر إلا فى أن يدخل السرور على من معه وأن يوفر لهم سبل الراحة. ولا أنساه أمام واجهات المحلات وقد لاحظ أننى أختلس النظر إليها ولا أقف أمامها مراعاة له وقف هو وقال ضاحكا: أنا أيضا أحب الوقوف أمام المحلات مادمت لن أدفع شيئا، وكان ينتهى بنا المطاف فى لوزان، وكنا نخرج معا فى الصباح، وإذا لم نخرج معا تقابلنا صدفة، فلوزان بلد صغير وإذا ذهبنا إلى «أوشى» حيث كان يصطاف محمود بك تيمور.. كان يرجع بذكرياته إلى سنة ١٩٣٧ عندما زارها مع والدتى، ويشير إلى الفندق الذى نزلا فيه معا، ويعيد على هذه الذكريات. فى كل عام.. ونحن نطوف حول هذا المكان.

كان يستيقظ من نومه فى لوزان ويصر على أن يرتب سريريه بنفسه حتى لا يتعبنى، وطبعاً لم يكن يرتبه وإنما كان يتركه كما هو ويغطيه بالغطاء معتقداً أنه رتبه. وكنت أقول له: أرجو يا بابا ألا تعمل شيئاً طالما أنا معك.

وكان يصمم أن يصنع القهوة ويصمم أن يغسل فنجاناه حتى يتعاون معنا فى الخدمة وقد أخذت له صورة فتوغرافية وهو يغسل

الفنجان، ورأتها عمته. فاستنكرت منه هذا، وثارَت عليه وكادت أن تخنقنى. كل هذا وأبى غارق فى الضحك.

وأذكر أننى شعرت بوعكة خفيفة فى لوزان ووصف لى الطبيب أدوية للأعصاب. فاشترى لى أبى كمية تكفى لمدة عام بأكمله، لأن الأدوية لم تكن توجد فى مصر حينئذ، وعدنا إلى المنزل، وأخذت أنا الأدوية، وذهبت إلى الأجزخانة وبدلتها بمستحضرات تجميل لى ولصديقاتى طبعاً دون علمه، وكنت قبيل عودتى إلى مصر أقول له لقد صرفت كل ما عندى وعليك أن تساعدنى فى الهدايا، ثم أخرج مع صديقتى وأظهر ما أخفيت من أموال وأشترى وأشترى.. وفجأة أراه أمامى فى الشارع وأنا لا أكاد أراه من اللقائف التى أحملها، فأقص عليه قصصاً طويلة ملفقة يسمعها ولا يجيب، ولا يحرجنى ويشتري لى ما أريده، ويكتفى بأن يقول لى وهو يودعنى فى المطار: «أنت لا تكفين عن الطلبات. ولا يكفيك شىء» فأخذ يده وأقبلها، وأقبله وأرى فى عينيه التأثر، وفى ابتسامته الرضا.

كنا على صلة قوية بأسرة مصرية تقيم فى لوزان، فرضت عليها الحراسة فى مصر فذهبوا إلى هناك وبدءوا حياتهم من جديد وكان الله معهم فنجحوا نجاحاً يشرف كل مصرى، لاحظ أبى أن علاقة الزوجين يشوبها فتور وصل إلى الجفاء بل إلى المقاطعة. وطلب منى أن أسألها إذا كان فى إمكانه أن يصنع شيئاً من أجلها. كأن يكلم الزوج الذى يعتبره ابناً له وله عليه حق التوجيه..

والحقيقة أننى لم أجرؤ على سؤالها، فهى لم تكلمنى فى الموضوع وأنا أراها كل يوم ونخرج معا من الصباح إلى المساء - فكيف أقحم نفسى فى حياتها؟.. وكان أبى يسألنى كلما عدت من الخارج، إلى أن اقترب موعد رجوعى إلى مصر قال لى:

- هل سألتها؟

لا لم أجرؤ

- إن لم تسألها أنت فأسألها أنا - أنا لا أستطيع أن أرهما على هذه الحال ولا أحرك ساكنا.

- ولكنها لا تريد أن تتكلم.

- لن أترك هذا البيت ينهار أمام ناظرى ثم أنا هنا فى مكانة أبيها.

وفى اليوم التالى خرجت معها كالعادة وجمعت أطراف شجاعتى وقلت:

- إن أبى مصر أن يتدخل بينك وبين زوجك. وقد طلب منى أن أبلغك ذلك منذ يوم وصولنا فأجابت والدموع فى عينيها.

- إذن كنت تعلمين طيلة هذا الوقت.

- نعم ولم أجرؤ

-- قولى لأبيك يكفى أننى شعرت منه بحنان الأب ولهفته وأنا فى هذه الغربية، ولكنه لا يستطيع لى شيئاً، فالأمر أخطر بكثير مما يبدو، ولكن أرجوك لا تخبراً أبى وأمى.

ولم يتدخل أبى بطبيعة الحال، وعدنا إلى مصر ومشاعرنا مع هذا البيت الذى أحببناه ومرت الأيام وجاءت هى إلى القاهرة، وأخبرتنا أن السعادة عادت إلى بيتها، وعاد الطائر إلى عشه، والحقيقة أنها صمدت للعاصفة بعقل وكرامة.

وكان يصلنا فى لوزان يوم ١٣ أغسطس. وهو يوم ميلاد أبى رسالة من أنور أحمد كلها حب ووفاء.. عالية الأسلوب جميلة المعانى، وكان أبى ينتظرها كل عام، ويرد بقصيدة يهديها إلى صديقه الكريم.. وكان يصله من بنات أخيه حورية ولبنى وهما من خريجات الجامعة فى هذه المناسبة رسائل تزلزل سيبويه فى قبره، ويجزع لها أبى أشد الجزع، ولا ينسى عند عودته أن يلوم لبنى على الأخطاء النحوية والهجائية. فأصبحت تبعث إليه برسائل تلغرافية كما كان يسميها عبارة عن سطرين حتى تتحاشى اللوم، وتدع سيبويه هادئاً حيث هو، وآثرت حورية أن تكتب بالفرنسية رسائل طويلة مفصلة كان يقرأها على أيام متتابعة وكانت هديتى له فى عيد ميلاده هدية رمزية، فهو لم يكن يحب أن يهدى ولا أن يهدى إلا إذا لم يكن هناك مفر من ذلك.

وكانت له فى لوزان علاقات عميقة وأصيلة، فمصطفى الزناني قد حتمت عليه ظروفه أن يقيم فى لوزان وكان من أغنياء الأقصر، وترك بعد أن وضع تحت الحراسة كل شىء، وتوجه إلى سويسرا ونجح وأثبت أن المصرى الكفاء ينجح حيثما يكون، وهو متزوج من كريمة محمود بك العتاء وقد حباها الله جمال المظهر وكمال المخبر، تجمعا حديقة بيتهم كل صيف ويشعر أبى معهم أنه فى بيت أولاده، ويشعرون هم به أبا وصديقا..

ومن معالم سويسرا بالنسبة له حسين بك أبو الفتح وحرمه. فقد أقاما فى جنيف - وكان يلتقى عندهم بأصدقاء قريبين إلى نفسه. ينسى معهم همومه وأشجانه، وكان يقضى النهار معهم إذا أراد أن يبتعد عن رتابة الحياة فى لوزان.

وأذكر ونحن فى لوزان أيضا أن ذهبنا معا إلى السينما وبعد انتهاء الفيلم أمسكت تلقائيا بمعطف أبى بكلتا يدي ووقفت خلفه لألبسه إياه.. وإذا بالنظرات تحوطنا من كل جانب وكأنى قد أخضأت عندما لم أراع بروتوكولهم وساعدت أنا أبى بدلا من أن يساعدنى هو كما هو الحال عندهم.. وقرروا بنظرة متعجبة مستهجنة أننى لا أمت للمدينة بصلة والحقيقة أننى كنت سعيدة وأنا أساعد أبى على ارتداء معطفه ولو كان عندى قليل من الجرأة لقلت لهم إن أغلى شىء فى حياة المرأة الشرقية هو تعلقها بأبيها وبأمها حتى بعد زواجها. ففى الشرق يظل الأب أبا والأم أما يعيشان لأبنائهما ويحسان بمشاكلهم

ويغرقانهم فى بحر من الحنان والحب والرعاية إلى آخر لحظة فى حياتهما.. أما عندكم فالأبوة بجمالها وجلالها تنتهى عند بلوغكم سن الرشد.

وكان الشهر يمر سريعاً.. وكنت أثقل عليه قبل عودتى إلى القاهرة وأصم على أن أعود بهدايا لإخوتى وأولادى، وكان يرمينى بالأنانية وهو فى الواقع على حق. وكنت أقول له: إننى أنانية ولكن معك أنت فقط، فأنا أنتظر منك كل شىء ولا أطلب غيرك بأى شىء فكان يقول باسم لا تحملين للدنيا هما مادمت على قيد الحياة ثم يحول الجد إلى مزاح ويقول «إذا لزم الأمر أبيع هدومى عشانك ياستى» ولم يكن مزاحاً ما يقول فقد كان هذا ما يشعر به، ولكنه كان يخفى بالمزاح ضعف الأب فيه.

وكنا نتبادل الرسائل بعد عودتى إلى بيتى وأولادى، وكان يعجب برسائلى ويشهد لى دائماً حتى أنه تكلم مرة فى الإذاعة وقال عنى إننى أكتب أحسن من ثروت أباطة. وسألته المذيع؟ هل هذا الكلام للنشر فقال «نعم» ثم تكلم عن أخى بما لم يرض أخى، وواضح طبعاً أن حديثه فى الإذاعة حديث خفيف وليس بحثاً فى الأدب، ولكن زوجى ثار. وأخى ثار. ولم أجرؤ على الشعور بالزهو بين هؤلاء الثوار.

وهذه رسالة منه سنة ١٩٦٣

عزيرتى عفاف

وصلنى خطابك فى جنيف قبل أن أقوم إلى لندن بدقائق، ولاشك أن الخطاب رقيق السياق على الأسلوب.. ولكته أدهشنى وكان موشكا أن يثيرنى. فيم العتاب؟ وفيم الغضب؟ ما الذى وقع فى هذه السفرة ولم يقع فى السفرات السابقة؟ وما الجديد الذى أثار فىك الغضب فمنعك أن تكتبى متعمدة؟ أنت اعتدت تطلبى ما تريدين، وأنا اعتدت أن أجيب إذا كان فى مقدورى أن أجيب، ولقد أكون والدا غير مثالى، ولكننى على التحقيق لست والدا بهتمتى منه.

أبوك

ولست أدرى ما الذى كان يمكن أن يغضبنى منه. أظن أنى اعتبرت أن سفره بدونى تقصير شديد فى الواجب المفروض على الآباء. وأضفت إلى حقوقى عليه حقا جديدا.

بابا العزيز

أنت تتهمنى بالأنانية - نعم إنى أنانية معك لأنى أشعر أنك الإنسان الوحيد الذى سيتحملنى ويحببنى كما أنا، فأولادى يحبوننى إذا أنا سامحت ولبيت وإخوتى إذا أنا جاملت واهتممت، وزوجى إذا أنا ساندت ورعيت. أما أنت فلا شروط لحبك فهو نعمة الله على، وأغلى ما أملك فى الحياة، فلا ترع إذا أنا طلبت وأخذت وأثقلت. إنه حقى عليك. اعتبره حقا مشروعاً وأملى أن يبقى هذا

الحق لى دائما وأن أطلب به ، فتجيب أولا تجيب . يكفى أنك هنا
معنا تظللنا بعطفك وحنوك وتساندنا بجهك ووجودك .

ومنى إليه سنة ١٩٦١

أبى

إن حب الأبناء هو الأنانية بعينها ، هو حب أطلبك فيه أن
تحبنى وترعانى ، وأطلبك فيه بأن تحمىنى من الناس والأيام . هو
حب أطلبك فيه بأن تشركنى فى جاهك وفى مالك ، هو حب أشعر
فيه أن لى عليك حقوقا أطلب بها .. فإن أعطيتها لم أشكر ، وإن
منعتها لم أياس ، إنه شعور جميل لا أجرؤ أن أشعر به لأحد سواك ،
فإن فى وجودك يا أبى حياتى ، وفى قلبك أمنياتى .. وفى ابتسامتك
سعادتى .. وفى جاهك عزتى واختيالى . هذا هو حبى .. فهل تقبله
بصدقه وأنانيته؟

وقد أهدانى وشاحا من فراء نادر كرد على هذه الرسالة .. وإنى
أتحدى توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ إذا كان لأى منهما كتاب
بأكمله قد أتى لهما بما أخذته أنا من كتابة صفحة واحدة .

ومنه إلى سنة ١٩٦٥

وصلنى جوابك الجميل ولازلت أؤكد لك أنك رزقت بصياغة
وإحاطة فى التعبير لم يرزقها كثيرون (وكثيرون دى يدخل تحتها
ثروت) .

وعلى ذكر الرسائل أذكر أننا كنا يوماً على شاطئ المنتزه
بالإسكندرية وجاء أنور أحمد وقال لي وصلتني اليم من أبيك رسالة
من لوزان وبها قصيدة.. فتعالوا إلى كابينة الدكتور الدمرداش أحمد
لنسمعها معا.. والدكتور الدمرداش طبيب وأديب وذواقة، وقر علينا
القصيدة، وهى عبارة عن غزل رقيق ومشاعر جياشة.. إلى أن وصلنا
إلى البيت الأخير. ثارت نفسى على الرغم منى وهذه بعض أبياتها:

منذ عشرين وخمس رق يأسى واضحلا
حين ألقيت على يأسى من عطفك ظلا
فإذا الدنيا عيون وغصون تتدلى
كان ظلما كل ذم قيل فى الدنيا وبطلا
إن أمثالك فيها حسنات تتألأ
قلت أمثالك.. هل فى القيد أمثالك؟ كلا
لست حسنا يبهر الطرف فإن عاوملا
إنما حسنك مما يطبى قلبا وعقلا
قد يراك الله من آلائه عزوجلا
جامعا فيك إلى الفتنة والعصمة نبلا
ولك النظرة يندى تحتها القلب ويصلى
وحديث هو أروى من طلا الخلد وأحلى
تلك عشرون وخمس هى عمري ليس إلا

والواقع أنني ما أن سمعت البيت الأخير حتى شعرت بغصة فى قلبى وثارَت مشاعرى. واعتبرته تعريضاً بالسنوات الجميلة التى عاشها مع أمى. والتى لا تتبارح مخيلته ولا تفارق وجدانه ورأيت أنه ليس من حق الوزن أو القافية أن يفرضاً مثل هذا الكلام وقلت لمن حولى إن هذا البيت قد أثارنى، وعاد أبى من لوزان ولم أكلمه فى شأن القصيدة. كما هى عادتنا.. إلى أن قال لى يوماً وأنا أساعده على ارتداء ملابس «أنور قال لى إنك احتججت على آخر بيت فى القصيدة الأخيرة «فقلت» نعم «فقال مجاملاً» وهل صدقت كلام الشعراء؟!»

سافر أبى إلى الكويت فجأة، فقد كان آخر سفره مرتين ليتمكن من إلقاء كلمة استقبال زميل دراسته مصطفى بك مرعى فى المجمع اللغوى ولكن الجلسة تأجلت لثالث مرة، فقرر السفر إلى الكويت بين يوم وليلة وكانت وزارة الإعلام قد دعتة وتنتظر قدومه، ويسافر أبى وأرافقه إلى المطار ولأول مرة أنسى أن أكتب الورقة التى اعتدنا أن نتقاسمها قبل كل سفر.. مكتوباً عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فيذكرنى بها فأكتبها، ثم يخفى من أمام ناظرى، وبعد أسبوع يأتينا خبر من وزارة الخارجية هنا أن أبى فاجأته أزمة قلبية فى الكويت ودخل مستشفى المواساة.. فيجن جنوننا ونحاول أن نتصل به تليفونيا فيقال إن المكالمة لن تأتى قبل يومين فتعيينا الحيل، إلى أن كلمنا يوسف السباعى الإنسان الرقيق، الذى يفيض عذوبة..

فيقول إنه سيطلبها بنفسه وكان وزيراً للثقافة.. ثم يكلبنا بعد لحظات قائلاً إن المكالمات ستأتي بعد عشر دقائق.. ولن أنس ما حييت اهتمامه بقلب اعتصرته اللمفة.. وسافرنا إلى الكويت عمى وزوجته وزوجى وأنا. وتوجهنا إلى المستشفى. واستقبلنا بابتسامة مرحبة عذبة، وكأن المرض لم ينقض على جسده.. ولم يتمكن من قلبه المرهف الرقيق.. ويقول لأخيه بصوت متهدج «ما الذى أتى بك وأنت لا تحتلم الحر» وتناوبت مع زوجة أخيه وهى ابنة عمته فى نفس الوقت. السهر عليه. كانت تمرضه بقلب يفيض بالحب وبغنى كلها قلق ولهفة، ولم تكن تغمض عينيها لحظة طوال الليل.. وكانت تقول لى: إن أبك عظيم حتى فى نومه، فهو فى أحلامه يتكلم عن الشعر والأدب والكتب.. وظلت معه تطمئن وتخفف مما به حتى اضطرت اضطراراً للعودة إلى مصر والدموع لم تفارق عينيها، وسافر عمى وكانت ظروفه تحتم عليه أن يعود إلى القاهرة وانتزع نفسه من الكويت انتزاعاً. وقد تصادف وجود محمد أباطة هناك لعمل فى الإذاعة وما أن سمع بمرض خاله حتى سارع إلى المستشفى ولم يبرحها حتى وصلنا وقد قضى معه ليلتين كاملتين هما فى الواقع أشد الليالى خطورة وقد وجد نفسه يخدم ويمرض كأحسن ما يكون التمريض وهو الذى لا يقضى لنفسه شيئاً، ولكن الشدائد تطوع النفس للأمر الواقع. وقد توافد عليه أهل الكويت جميعاً فزاره الحاكم وولى العهد والشيخ سعد ودعاه أن يكمل علاجه فى لندن.. غير أن حالته

الصحية لم تمكنه من ذلك.. وقد أبدى الشيخ سعد وهو وزير الداخلية والشخصية ذات المكانة الرفيعة هناك اهتماما يفوق الوصف.. وعرض أن يذهب إلى مستشفى الصباح لأن معداتها أحدث من المستشفى الذى أسعف فيها ولم تساعد حالته على التغيير.. وتقبلنا كل هذا الاهتمام بقلوب يملؤها انتأثر والعرفان والشكر.. وزاره الوزراء والمذيعون الذين عرفوه من خلال أحاديثهم للإذاعة.. والذين أرهقوه باعترافهم.. من زيادة الحفاوة به، ومهما فعلنا فلن نفى أهل الكويت حقهم فقد أكرموا ضيافته واحتنوا به بدءا من الحاكم إلى أبسط فرد منهم..

وقد طوقوا أعناقنا بالجميل والاهتمام والمجاملة.

وقد أحاطنا المصريين المقيمون هناك برعاية صادقة واهتمام بالغ وانهاالت علينا المكالمات التليفونية من مصر وجنيف وباريس وتوالست البرقيات من مصر والبلاد العربية، وأرسل محمود فوزى برقية رقيقة بصفته زميل دراسته وصديق شبابه، وكن الجهات الرسمية فى مصر لم تحرك ساكنا، وهذا عتاب أتحمل مسؤوليته.. فهو أولا مصرى فاجأه المرض فى بلد غير بلده ثم هو ركن من أركان الأدب فى مصر والبلاد العربية، وقد احتفت به الكويت.. واهتمت به اهتماما بالغاً.. ولكن بلده؟ ماذا فعلت من أجله.. لا سؤال ولا حتى برقية استفسار. أما السفير المصرى عز العرب أمين فقد اهتم بصفته الشخصية وهو إنسان رقيق الطباع استحق فعلا حب الناس وتقديرهم هناك، وكانت

الإذاعة تذيع يومياً برامج شعرية سجلت بصوت أبي أو حديثاً له أو أسئلة وجهت إليه وهو فى المستشفى. ومما أثار فى نفس أبى وصول ابن أخيه من باريس حيث يعد للدكتوراه.. للاطمئنان عليه.. وأشفق أبى على ميزانيته وما تحملته فى هذه السفره وقد بقى محمود إلى جانبه ثلاثة أيام كان فيها شعله من النشاط والحركة.. قام بالتمريض بدلا منا نهائراً وأما الليل فكان يترك لنا المسئولية وينام هو كالطفل ارهقته الحركة، وعلاقة محمود بعمه علاقة روحية أساسها الحب والإعجاب وقوامها الشعر والأدب، وهو يقول الشعر ويحفظ من شعر عمه الكثير، وعاد إلى باريس بعد وداع تكشفت فيه العواطف الجميلة، وبدا وكأنه الوداع الأخير.

وجاءت شقيقتى وزوجة أبى وبقينا فى الكويت شهراً بأكمله، وظهر من رفته أكثر مما نعرف.. فهو لا ينام طيلة الليل ولكنه لا يطلب شيئاً.. ظنا منه أننا ننام.. ولا يطلب نهائراً حتى لا يقلق راحتنا وكنا ننتزع منه الطلب انتزاعاً، إلى أن قلنا له إننا لم نحضر من القاهرة لنرتاح وإنما جئنا لنتعب ونسهر ويرتاح هو، وكنا نتناوب السهر عليه.. أختى وأنا، وكنت فى الليلة التى أسهر فيها معه أقول له: «اطلب من أختى أن تعود إلى القاهرة فما حاجتنا إليها؟ ألا يكفيك أنا؟» «فبيتسم ويوافق على رأىى.. وإذا سهرت معه أختى وافق على نفس الاقتراح ولكن على أن أعود أنا.. فكنت أقول له: «إنك كالمترج من اثنتين.. توافق على رأى كل زوجة تتهدأ

أنت بالا» فكان يجيب: «إننى فى الحقيقة أريد أن تسافر إحدكما لأشعر أنتى قريب العودة إلى بيتى»، وكان يقلقه المرض بعيدا عن بيته. ويخشى الموت بعيدا عن بلده. ولكن لا يقول ولا يبين.

وكنت إذا جافاه النوم ليلا. مسحت بيدي على جبينه وعلى كتفيه، وقرأت له آية الكرسي كما كنت أفعل لأولادى إذا توعكوا، وأظل أعيدها. وأخطئ أحيانا فى الشكل من كثرة التكرار. فيردنى فى رفق ويصلح الخطأ. حتى ولو كان قد أوشك على النوم، وكنت أعجب لذلك ولازلت.. وكان أحيانا يقرأ معى الآية بصوت نائم ثم يشير بيديه إعجابا بقوة الأسلوب كل هذا وهو إلى النوم أقرب.. لن أنس هذه الصورة.. لن أنساها ما حييت.

وفى المستشفى كان يسألنا كل يوم: «أحنا يوم كام النهاردة؟» فنجيبه واعتقدت أن تكرار السؤال يرجع إلى أنه يريد أن يتعجل الأيام ليرى نفسه فى مصر. فى بيته. إلى أن جاء يوم ١٩ يونيو وهو يوم ذكرى وفاة أمى وسأل، وأجبنا. ولأول مرة أنسى هذه الذكرى بسبب مرض والدى ولهفتى عليه، ونام وظل يتكلم أثناء نومه.. ويسأل: هل تذكر هذا الميعاد أحد فى مصر؟ هل زار قبرها أحد؟ وقضى ليلته يحيى هو ذاكها، ومرت الأيام بعد ذلك ولم يسأل ولم يابهِ للتاريخ. فقد كان يخشى أن تمر ذكراها.. ولا يذكرها هو، بذل الدكتور اندريه تاجر مدير المستشفى وجميع مساعديه ما فى وسعهم وهم يعلمون أن مجهودهم لن يغير من المقدر شيئا.. وظلت ابتسامتهم

مضيئة إلى أن نزلوا جميعا يودعون يوم عودته على باب المستشفى مع شعاع الفجر.

وإذا تكلمت عن مرض أبي في الكويت فلا أستطيع إلا أن أتكلم عن الدكتور عثمان خليل مستشار مجلس الأمة هناك.. فقد جمعته بأبي صداقة قوية نمت من كثرة ما تردد أبي على الكويت.. وكان يقصد إلى بيته بعد نهار كله مواعيد وارتباطات.. وكان يأنس إليه ويحدثه عن ذكريات شبابه.. ويتخفف مما به من حنين إلى السنين الخوالي، وقد تحمل الدكتور عثمان مسئولية كل ما يرتبط بمرض أبي.. وكان يأتي مع كبار الزوار بوصفه شخصية من الشخصيات المصرية البارزة هناك.. أو يستقبلهم في المستشفى بوصفه قريب لأبي وصديق، وتحملت زوجته وهي ابنة عم أبي كل ما يتصل بالمرض من مسئوليات عاطفية، فكان بيتها بيته.. تشرف منه على راحته وتبى فيه رغباته، حتى شعرت يوم وصولي إلى الكويت أنني لن أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت هي، واستمرت رعايتهم إلى اللحظة التي غادر فيها الكويت عائدا إلى مصر.

وعند وصوله إلى مطار القاهرة استقبله على باب الطائرة أخوه الأصغر ماهر أباطة، وكان قد رتب لهذه المقابلة ورأفقه الدكتور عبد الله على في سيارة المستشفى إلى منزله.. وعند صعودهما إلى الدور السابع توقف بهم المصعد. وتوقف قلب الأسرة بأكملها التي كانت في انتظار عودته وظل المصعد في صعود وهبوط مدة نصف

ساعة على الأقل، وهو هادئ لا يتكلم، ولكن الطبيب المرافق له لم يكف عن الصياح طالبا أنبوبة أكسجين خوفا على مريضه، وصل إلى بيته وقد أكرمه الله وأكرمنا بذلك.

فركوب الطائرة والسفر الطويل والمرض الجاثم على صدره، كل هذا قد أفقدنا الأمل فى وصوله إلى فراشه سالما، ولكنه وصل واستجاب الله إلى دعواتنا. ودعونا كبار أطباء مصر جميعا.. الدكتور محمد إبراهيم - الدكتور عبد العزيز الشريف - الدكتور علي عيسى. الدكتور غليونجى. الدكتور أحمد إسماعيل. الدكتور حلیم دوس.. دعوناهم وتضافرت جهودهم وتبدت عنايتهم واهتمامهم..

ونظرت حولى.. وإذا ببيته فى الزمالك ملئ، بأولاد أخيه وأحفاده كل منهم يدخل إليه ويحاول أن يخفف مما به.. كل منهم يتمنى أن يسهر وأن يتعب.. ويرى فى ذلك أمرا مفروضا.. وإذا بأخيه أحمد لا يفارقه.. إلا ليسأل الأطباء عن حالته..

وكان أنور أ حمد يأتى صباحاً ومساءً. واعتبر نفسه ابنا له. وتناوب معنا ساعات التمريض.. وإذا جاء ميعاد الغذاء تولى هذه المهمة الصعبة، فقد ظل أبى طوال مدة مرضه لا يقرب الطعام ولا يقربه النوم إلا دقائق، وحاول أنور أحمد أن ينقل إليه ما يدور فى الخارج، حتى يبعده عن الملل الذى استبد به، وكان يكلمه عن المسرح وعن رواية «قيصر» التى كان مفروضا أن يمثلها المسرح القومى.

وتأثر أبى تأثراً عميقاً من رعاية صديقه أنور أحمد.. فقال لى:
«الواحد يعمل لأنور تمثال من دم القلب» ولم أكن قد سمعت هذا
التعبير من قبل فسألته إن كان تعبيراً معروفاً فأجاب «بل أنا الذى
أقوله».

ونفذنا العلاج بدقة وأشرف الدكتور عبد الله وهو ابن أخته
على تنفيذ العلاج ولم يفارقه لحظة، وترك بيته وزوجته وأقام معه،
ورعاه بقلبه ودمه ودموعه، إلى أن فاجأنا القدر وأقول فاجأنا لأننى
اعتقدت أن طول المرض قد أبعد شبح الموت ولكنه فاجأنا وكنت إلى
جانبه، ومعى عبد الحميد أكبر أحفاده، وكان ساهراً إلى جانبه
لم ينم.

وذهب الموت بالذى كنا نحتمل بوجوده مرارة الحياة، وحتى بعد
ذهابه كان رقيقاً رحيماً عادلاً كما عودنا، فقد ترك لنا رسالة أراد
أن نقرأها بعد وفاته، وتابعنا من هناك ونصحنا حتى وهو فى أكرم
جوار، وهذه رسالته:

أحبائى

تقرءون كتابى هذا، وأنا فى أكرم جوار، وأى جوار هو أكرم من
جوار الله قابل التوب اللطيف الحليم الذى عزت عظام قدرته،
ووسعت خلقه سوابغ رحمته، وإنكم لتعلمون أن الموت وهو الحق
الخالد، مضروب على الأحياء، وإن كل مخلوق له لخالقه مآب وإن

لكل أجل وإن تطاول كتابا وإننى لأومن أن الفراق فيه لوعة عارمة
ومشقة قاصمة فاستعينوا عليه بما تطيقونه من تماسك وتجميل وصبر..
ذلك إنه لا يجدى فى تحمله إلا التجلد والتجمل والصبر. على أننى
لست ألومكم على حزن يعتصر قلوبكم. ولكننى ألومكم إذا أفسد هذا
الحزن عليكم سلامة التقدير وأصالة التدبير ومنكم من تؤدى شعائر
الله خاشعة فى صومها وصلاتها، فلتذكرنى مترحمة فى صلاتها،
ومنكم من لا تؤديها إلا فى قلبها الطاهر.. فلتذكرنى فى مكتوم
زفرتها، ومسجوم عبراتها.. ولقد أومن أن لى عليكم حق التكريم
فليكن تكريمكم هذا لذكرى نابعا من موردين كريمين.. أما أولهما
فتجافىكم عن الدنيا فإن الدنيا مخبئة موبقة للكرامة أو القيم.. وإنها
لتنقصنى كما تنقصكم.. وأما ثانيهما فسد المنافذ على الخلف يدب
بينكم، فإن الخلف يهوى بأصحابه إلى منهار مشنوء، وعيش موبوء،
وإنه كما يسقط بمكانتكم فى دنياكم الزائلة بين الأقوياء والمخالطين
فإنه كذلك يسقط بمكانتى بين من خلفت بينكم من محبين ومقدرين
وحاسدين، وإننى وإن كنت لم أورثكم شيئا يذكر من عرض الدنيا
فإننى، وأرجو ألا أكون مخدوعا، قد ورثتكم سيرة أستطيع أن أقرر
أن المآخذ عليها ليست كثيرة، فإذا هى كثرت فإنها ليست بالغاضة
ولا الكبيرة وحسبى أننى لم أشرك بالله أحدا، ولم اضر من خلقه
أحدا ولم أبطن لأحد حسدا ولا لدا، على أنى مع ذلك كله بشر من
البشر له أخطاؤه وأوزاره.

وبعد.. فألى لقاء بعيد الأجل إن شاء الله.. أسعدكم الله ورحمكم الله ووفقكم لما يحبه ويرضاه، وأقبلكم جميعا، إن ترك لى حساب الرحمان الرحيم فرصة لهذا التقبيل وإذا استطاعت فتواردت ليكم قبلاى نافذة من بين ترابى المهيل.

ولست أعلم.. ولا يعلم حتى رسل الله وأنبيأؤه بما يلاقيه الإنسان وهو ابن الموت بعد الموت.. وذلك علم الله وحده أحاط به تعالى وحده. ولكن الذى أعلمه علم اليقين أن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه خلق الإنسان ضعيفا، فلن يتلقاه إلا مشفقا عليه لطيفا.. ومسك الختام أن أدعو الله بدعاء رسوله محمد بن عبد الله.

«اللهم إن مغفرتك أرجى من عملى، وإن رحمتك أوسع من ذنبى، اللهم إن لم أكن أهلا لأن أنال رحمتك، فرحمتك أهل لأن تنالنى لأنها وسعت كل شىء يا أرحم الراحمين»

عزيز أباطة

مختارات من شعره

سنوات عشر

من «أناث حائرة» وبعد وفاة والدتي بعشر سنوات قال:

قالوا: لقد ضحك الحزين الأيم

الجرح يفغر فاه وهو مسمم

هل كان إلا كالخليفة كائننا

يطويه ناموس الوجود ويحكم

أخذوا بظاهر ما يرون فهل رأوا

قلبا يذوب واضلعا تتحطم؟

وماقيا غرقى ونفسا يغتلى

فيها الضنى. ونفائه تتضرم

مالي وللوائم أحسبى لوما

هم بين اطواء الجوانح جثم

أثمت حين حنثت بالقسم الذى

أبرمت يوم هوى القضاء المبرم

أغويت يوم هفا إلى قلبى الهوى

فصفا؟ ومن فى قلبه المتحكم

ما أهون الانسان إن وفاءة

إما اتقاء أذى. وإما مغنم

عظمت على اخلاقه أكلافه
 وهو المسير فى الحياة المرغم
 نفض التراب الضعف فى أغراقه
 وابن التراب الصاغر المستسلم
 آنسته بالأمس يقسم جاها
 والعجز يسخر منه سرعة يقسم
 ويلى من الهول الذى يعتادنى
 كالنار تنشج والرياح تهزم
 فإذا الوساد كأنه متضرم
 وإذا الفراش كأنه متذمم
 وإذا الكواسر مقعيات جثم
 وإذا الجوارح صاغيات حوم
 وإذا الأفاعي الواغرات كأنها
 اضطرعت على صدرى تفح وترزم
 وإذا الطيوف كأنها من عبقر
 هبطت توهج فى محاجرها الدم
 فتقول: قد حنيت على جهنم
 وأقول بل أحنى على جهنم
 وأظل أسمع جمجمات عزيزها
 وأكاد أفهم منه ما لا يفهم

ياصاحب القسم العظيم تملأ الكبد
العظيم وما تراخى أعظم
وأقول حسبكموا فكشر ضيغم
عن نابه حرذا وتضمنى أرقم
وأقول ماجرمى على بهين
لكن بحبى لها اتقدم
فيقول قائلهم تعست ألم تزل
تتحيف الحب السنى وتظلم
ما الحب وهو تهذب الدنيا به
إلا الوفاء أو الوفاء التوأم
وأدب للمصباح أشعله فما
ألفى سوى متنسدم يتنسد
ما كان مسرحهن إلا نفسه
وضميره المتغلغل المتبرم
اغرته سابقة الهناء فانبرى
لنديه مثلها بتوسم
يا أخت منصور الشباب تحية
مطلولة فى آهة تتضرم
معناك قبلة ناظرى أو ورده
كالبيت يأنس فى ذراه المحرم

أرنبو إلبك وللحفاة بقفة
تنهل فى للل الدموع ونسجم
ولكم دفعت إلبك صدرى حانفا
فى غمرة الوهم الذى أآوهم
وأذبت فى أذنبك حبة مهجآى
شعرا تفجر فى ملاحآة الدم
فإذا الرخام الجهم نأجفآه
وأذا الشفائف ما اضم ولاثم

ربيع العمر

يا ربيع العمر من حالى الصبا
شد ما هاج افتقاديك شجونى
يا ربيع العمر من حالى الصبا
من على فرقتك اليوم معينى
عهد لا أعرف للدنيا سوى
أنها مسرح لهوى ومجونى
يسفر الصبح فألفاه وبى
بهجة النفس واشراق الجبين
وإذا الليل دجا راحيته
اتخطى من حبيب لخديين
يعرض الهم فنجليه كما
يدفع الفجر أهوايل الدجون
وكأن العيش يختال بنا
بين أمواه وأيك وغصون
زال كالرشفة من كأس الطلا
راويا من حمر بثرى وحنينى
أين صحبى ولداتى ؟ عصفت
بالأعززين فجاءات السنين

وإذا المرء مضت أترابه

ذاق أو كاد تباريح المنون

ياربيعا لم تكن ميعته

غير هفاهف عطور ولحون

لن يكن الخلد إلا صورة

من ديابيجك أو تلك ظنوني

ياعشياتى التى أجرعها

سامدا^(١) أدم رأسى بيمينى

زاكى اللوعة محموم الجوى

واكف الأدمع مصهور الأنين

لا تقولى من أخو البث الذى

هاجنا.. من صاحب اللحن الحزين

النفاثات نفاثاتى أنا

والشئون المستهلات شئونى

(١) حائرا

ذكريات الطفولة^(١)

إنى كلفت بمن أحب صغيرة
تدلى بمن تلقى بكامن سرها
جبلت على حب الإساءة والأذى
ولطالما ضج الورى من جورها
تسعى إلى الأوكار إن سكن الدجى
وثبا فتوقظ ماغفا من طيرها
وتقوم إن شاب الظلام لروضة
غناء باسقة تحيط بقصرها
فتهم بين خضيرها ونضيرها
لتضم ضاحكة بواكى زهرها
وتصوغ مما تننقيه - حبيرة -
عقدا يرف جماله فى نحرها
درجت سويغات الطفولة حلوة
أواه لو رجعت على بسحرها
تركت بقلبي لوعة ما تمحى
حتى توارى أعظمى فى قبرها

(١) نظم أبى هذه القصيدة يتحدث فيها عن ذكرياته مع أمى ابنة عمه.

إنى سعدت بحبها وقنعت من
تلك النجوم الزاهرات ببدرها
وهويتها أصفى الهوى متغاضيا
عن بخلها متسامحا فى هجرها
ولكم أداؤها فأذكر جورها
الماضى فتنسب كل ذاك لغيرها
بيضاء يستهويك لاعب دلها
ويرد غيبك رادع من طهرها
موسومة بالحسن يسطع وجهها
فى فاحم مسترسل من شعرها
يا نسمة الاسحار إن يممتهها
فاستقبلتك ببشرها فى خدرها
فتحدثنى عنى هناك وقبلى
محممر وجنتها وناصع ثفرها
قولى لها مضافك أسهده الهوى
فعسى يرق على موضع سرها^(١)

(١) موضع السر هو القلب.

تسبيح الذبيح لـ ١٩٥٨

ايه يا ضيفسة الضلوع هنيئا
لك قلبى مثوى وصدري وظهري
فى الذراعين فى الترائب فى مجتمع
العظم هابطا تحت نحري
لم أذل لك المنازل أنت اخترتها
فارتعى بها واستقرى
سوف نمضى معا سبيلى. سبيل الخلق
ما فى اجتنابه من مفر
وتؤمنين أنت غيرى. وغيرى
لتهضى سراج عمر فعمر
يالالى الوصال موعداك الحشر
وأين الوصال فى روع حشر
أكذب الله لو أقول قضاء الله
قابلته. بحمسه. وشكر
لست أسمو على النفاق ولكن
ما نفاقى والله عالم سرى
رب غفرانك الكريم. وماذا
أنت إن لم تغفر آثامى ووزرى
قد خلقت النفوس ضعفى وليس
الضعف معراجها لفضل وأجر

أنت ذو الحول والسنى وأنا ذو
 الضعف. أخفيه باجترائي وكبرى
 أنت. ما أنت لا علم يسمو
 لعوالي أسماك إلا بقدر
 أنت ما أنت هذه الشمس والجواء
 والأرض تحت عرشك تجرى
 أنت ما أنت همسة منك تنشى
 غيرها. كيف؟ أنت وحدك تدرى
 لا أرانى ملاقيا غير حسنى
 منك مهما أسئ. وصفح وغفر
 إن فى جاهك العريض لثلى
 من برايا التراب ظلة بر
 نحن إن لم نذنب فكيف تلذ العفو
 تزجيه مغدقا غير نزر
 يا بنياتى أخشعن لأمر الله
 واصبرن كل صبر بأجر
 لم أخلف مالا لكن ولكن
 رب ذخر أسمى من المال ذكرى
 وبحسبى إنى عففت فذاق الناس
 عرفى وآمن الناس شرى

أم كلثوم

أضوى ولى من ظلك الكنف الرحب
وأظمى ولى من ثغرك المنهل العذب
أحبك ألوانا من الحب. لم تزل
تجدد. لا يهدا لظاها ولا يخبو
تراد فن فى قلبى جوى غير مقلع
وبرحا. ألا ياشد ما حمل القلب
ولى فىك اجهاش الليالى. ومدمع
إذا كف غرب منه أعقبه غرب
وجنة مشبتاق إذا شط النوى
وأنات محروم. إذا جمع القرب
ومحمومة من غيره ما تدافعت
بصدري إلا قلت: زلزلت الهضب
أثبك تحت الفجر والكون هاجر
تسابيح نفس ملء احنائها عتب
إذا كان حب الناس سهدا ولوعه
وافئدة نهفو لأفئدة تصبو

فليس الذى ألقاه فيك من الضنى
ومن حرق تفرى الضلوع. هو الحب
بلى انه التقدير قد طهر الهوى
ترف كما رف الندى المونق الرطب
قصاراك منى. والدنا فى. مدارها
تقلب حتى ما يقرلها جنب
أساكيب وجد فى الجوامح تنصب
وحز مدى بين الأضالع لا ينبو
وذمة واف. والوفاء مشقة
وما حسبي إن أدنى المرتقى الصعب
لئن لم أكن حسبا لنفسك. إننى
لا اعتد نعمى العمر أنك لى حسب

المولد الشريف

اليوم ضاح والنسيم رخاء
وتريق فيض روائها الصحراء
وتبرجت تحت الظلال وأشرفت
كالمحصنات الكعبة الغراء
وشى الجلال جمالها والحسن فى
حضن الجلال الفتنة العذراء
وقريش حول شيوخها وحديثهم
نجوى إلى أربابهم ودعاء
ارزاء يوم الفيل إن عصفت بهم
فلقد مضت بهوائها الأرزاء
وتلوح من خلل البيوت إليهمو
أمة يغالب خطوها استحياء
ودنت يشع على ذراعيها السنى
القا. وتعبق حولها الأرجاء

ومشت إلى الشيخ الجليل^(١) وأومات
 للطفل وهو طهارة وسناء
 هذا ابن عبد الله وابنك بعده
 طابت له الأمات^(٢) والأبواء
 فتهلل الشيخ الحزين وضمه
 «ياسين» من قد ضم و «الإسراء»
 وضعت في أحضان يثم أمه
 فاذا الأسى طاف عليه عزاء
 ولدت كما تلد النساء فهن في
 حمل. وفي عنق المخاض سواء
 سنن الخليفة ليس في قانونها
 عوج ولا في ضبطها استثناء
 إن تخب نار أو تدك ركائز
 فعوارض إن صحت الأنبياء
 ويقول جد الطفل للملأ الذي
 جمعوا جموعهمو إليه وجاءوا
 سموا الصبي محمدا فلعله
 تسنى المحامد فيه والآباء

(١) عبد المطلب بن هاشم.

(٢) الأمهات.

لم يدر أن المهد يحمل رسالة
الأنبياء ببعثه بشراء
ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

الرفيق الأعلى

قوى الانسان واشتد مطاه^(١)
وتجلى من. سنى الله سنانه
وتوالى أشهر ناعمة
طاب فيها العيش واخضرت رباه
لم يصرع يثرب الا مرض
ساور المبعوث بالحق أذاه
شبت الحمى به وقدتها
فتداعت تحت مسراها قواه
فإذا أفضى إلى حاجاته
حملته فى عناء قدماه
رقرقت من حبها زهراؤه^(٢)
ومن العطف فانسته السقاما
ومضت تمنحه عائشة
رحمة تندی.. وأنسا.. ولزاما
ولقد قامت صلاة فهوى
بعد أن غالب حماه فقاما^(٣)

(١) مطاه: الظهر.

(٢) فاطمة الزهراء.

(٣) أى أنه قام فلم يقو فهوى صلى الله عليه وسلم.

قال: فلينهض أبو بكر بها
 فاندبوه للمصلين إماما
 أتري هل كان رأيا عابرا
 أم هو العهد توخاه وراما
 وأحس المصطفى أن الردى
 مائل فانهل بشرا. وابتساما
 سيلاقي وجهه من أرسله
 رحمة للناس تسنى وسلاما
 يا رسول الله أكرمت الورى
 فاذا الانسان للفضل تسامى
 وبعثت النفس فيه حرة
 تنشد الخير وتأبى أن تضاما
 وجعلت العقل فيه مبصرا
 بعد أن جلله القهر فغامما
 واقتضيت العدل للحكم قواما^(١)
 وبسطت الحق للخلق عصاما
 ونشرت الدين نورا وهدى
 يكشف الحيرة عنهم والظلاما

(١) النظام.

يا رسول الله أبلغت الذى
شاءه الخالق للخلق نظاما
وانتهت منك إليهم سنة
كرمت فى الله ببدءا وختاما
قلت: من كف الأذى عن غيره
أمن النار عذابا وغراما
والذى يأتى إلا مشركا
واجد فى رحمة الله مقاما
والذى يعفو وإن أذنب لن
يحرم الخلد مقرا ومقما
والذى يستر عرضا كالذى
صبر النفس فلم يركب حراما
والذى يبذل فى الله يدا^(١)
والذى أنعش فى الضيق الكراما
والذى يدفع ظلما. والسذى
رد بأساء الأيامى. واليتامى
والذى يهدى مسيئا فانثنى
عن أذى أوغل فيه فاستقاما

(١) يدا: معروفاً.

يغدق الله عليهم كالألى
قطعوا العمر. صلاة وصياما
رفع الله إليه روحه
عام أن ثبت للدين الدعاميا
أجل المرء مقدور له
ثم يمضى. إن لله الدواما
حسبه وهو نبي بشر
أنه قد أيقظ الكون. وناما

ومن رواية «الناصر» هذه الأبيات التي كان يحبها أبي

وكان يطلب من ثروت أن يرددها له

غدا تترامى شقة البعد بيننا

وأى عذاب الله أقسى من البعد

غدا تحمل الأمواه رحلى مجاهدا

فتنهل عن دمعى، وتهتاج عن وجدى

غدا يتنزى القلب كالسفن أرقلت

على متن رجاف من الموج ممتد

غدا تنطوى نفسى على كل ساعر

دومن عقابيل الصاباة والجهد

غدا لا يرانى الليل إلا مدلها

قليل قرار الجنب متصل السهد

إذا وقعت الدهر ابلين جدتى

سلمت.. فلن يبلى وفائى ولا عهدى

مواثيق من أعماق نفسى قطعتها

وأنت؟ فماذا أنت صانعة بعدى؟

بغداد

قالوا بلغتم. قلت: أفق الأنجم

ومدار كل مرجب ومعظم

لم ننا عن وطن. ولا أهل أما

جرت العروبة بيننا مجرى الدم

قالوا بدت بغداد.. قلت: تدافعت

بغداد. بسين تنعم وتقدم

وجعلت أشرع ناظري كأنما

أشتف أقصى طلبه المتوسم^(١)

فشهدت عرق العتق كيف أمدها

عبر القرون بعزة وتكرم

قل للنواصي العظيم اللهم

وأبى معاذ. والشريف ومسلم^(٢)

والطائيين الخالدين على المدى

من بلبل غرد. وبحر خضرم^(٣)

(١) الناظر.

(٢) أبو نواس ويشار والشريف الرازي ومسلم بن الوليد.

(٣) البحترى وأبو تمام.

هاتوا من السحر الحلال أرفه
لسنائها القدسي سجدة مقدمي
إنى أحج لها. وبين جوانحي
شوق كأنفاس اللهب المضم
وهبطت في بطحائها فكأنها البطحاء^(١)
تسنى في جلال الموسم
وسعيت في رحباتها ودروبها
بخشوع معتمر وتقوى محرم
أمل يراوحنى السنين قنصته
فلقيتها في مجدها المتنسم^(٢)
مزهوة الأعطاف زهو الصبح قد
أضفى سناه على الفضاء المظلم
بغداد. والدينا الفتية كنتها
حين البلاد ولائد لم تعظم
قربت للأمم المشارع فارتوت
من فيضها المتدفق المتسجم

(١) بطحاء مكة.

(٢) العالى.

ما بين بصرى. وكوفى دعت
 أشياخك النصحى لنهج أسلم
 هذا رواق الأصمعى ومثله
 لأبى عبيدة مجلس. والأسلمى^(١)
 حجج الزمان معلمو أمم ربا
 فى حجرهم علم ثرى المنجم
 العقل قد حررتة ودفعته
 فمضى على غلوائه لم يحجم
 هتك السجوف على الكهوف وخاضها
 كالهدى يقدح فى الضلال المعتم
 نصب الموازين الدقيقة وانبرى
 ينفى ويثبت بالدليل العلم
 بغداد لاسمك هزة سحرية
 فى كل مصر. للعروبه ينتمى
 هو عزة العرب الكرام. وفخرهم
 لا فرق بني مزنر ومعمم^(٢)

(١) هو يحيى بن زياد الفراء

(٢) يقصد بذلك المسلمين والمسيحيين

إنى سألت الله جل جلاله

يحميك من كيد يحاك مدمدم^(١)

ويقيك غدر عدوك المستلثم

ويقيك شر مسيطر متحكم

ومخادع ومضلل ومحطم

ومذل ومقيد ومكتم

قرى على كبد الزمان عزيزة

بغداد. واعتسفى سبيك واسلمى

(١) مهلك

بشارة الخورى

قف فى ربا الخلد واهتف فى مقاصره
بشاعر ملأ الدنيا كشاعره^(١)
سرى له أمس والأملك تقدمه
فى موكب عامر الإشراق غامره
البحترى تهادى عن ميامنه
يختال. والمتنبى عن مياسره
يسعى أمامهما فى قدسى هالته
شوقى يزف جديدا عن معاصره
والخالدون الألى حلت ذخائرهم
صدر الوجود. فرفوا من ذخائره
تحاشدوا لأخ كانت ترانمه
قيثارة الشرق. باديه وحاضره
ق!!وا ظفرنا بخلاق الجمال. زكا
فى الأحرف الصم وحياء عن خواطره
بالعبرى الملقى^(٢) من عباقرة
والأوحى تعالى عن مناظره

(١) الأشارة للشاعر الخالد شوقى.

(٢) الملقى: الملهم.

وهشت الروضه الفيحاء نائرة

فى بهوها الزهر ترحيبا بزائره

الله دبح جنات النعيم لمن

تفياً الخلق ظلا من مآثره

أدنى العباد له أوفاهم مددا

فى فضله أو هداه أو بصائره^(١)

وخيرهم. لا المصلى فى مساجده

أو فى كنائسه. بل فى سرائره

ورادع نفسه عن شر ماضمت

وخلقه عن مسئ من بوادره

والدين فى روحه أو فى سماحته

بنوة بين إنسان وفاضره

(١) جمع بصيرة وهى العقل.

الأخطل الصغير

لم أنس آخر عهد لي بطلعته
وللردى رفرفات^(١) في مقاصره
والدء محتكم. والحوول منحطم
وأول النزع يحبو صوب آخره
وحوله الله. يلقي في عقيلته
من لطفه السبمح. عذراً عن مقادره
تقيض علقا وإيثارا وخافقها
يدوب كالكرم في راووق^(٢) عاصره
في منزل. لو ضمير الشرق أنصفه
لا عتده الشرق ركنا من شعائره
لم أنسه حين أفضينا له فمضى
يعتامنا بكليل الطرف فاتره
وقال من أنت؟ فاستعرفت^(٣) فالتقت
لحاظه ثم غامت في محاجرة

(١) رفرف الطائر: حام وأراد أن يقع.

(٢) الراووق: المصفاة والكأس.

(٣) أستعراف الرجل: عرف نفسه إلى غيره.

وقال هل كنت من صحبى؟ فقلت أجل
 كصحبة العشب الظامى لاطره
 وراح صحبى وهم مثلى ذوو نسب
 بفته. وبنو موسى وسامرہ
 فطارحوه وشاقوا من جياهره^(١)
 فاهتز ينثر عقدا من جواهره
 وعاد كالمرح النشوان. ثم طغت
 عليه وعكة زاوى الروح حائره
 مارابه الدهر إلا زاده عظما
 كالطيب يزداد طيبا فى مجامرہ
 ثم افترقنا وأدرى أن نازلة
 ترقى إلى عشه الحالى وطائره
 ونحذر الموت. لا نألو له حذرا
 والموت أقرب شئ من محاذره
 ياويحها ذكريات هجن بى شجنا
 تغزل روحى تلظى فى هواجره
 فما طرقت سوى نفس وذابحها
 وما تركن سوى قلب وصباهره

(١) الجهير والجهيرة: من معناهما الجميل الأنيق.

اعدى عدوك سن صاحبت سقما
 عدا عليها بغاث من مناسره^(١)
 ويح اجتماعهما. والموت أكرم من
 عمر رمى الدهر فيه من فواقرة^(٢)
 لم يرحم الشعر. والدنيا تضى به
 فى ذات صائغته الأعلى وخابره
 أدال منه. ولكن عزه نغم
 من السماء ترافت عن مزايره
 بشارة أنعم فجار الله أنت ومن
 أرمى وأروح نفسا من مجاوره
 قد كنت للدهر عذرا من معاذرة
 بما ابتدهت وفخرا من مفاخرة
 عارضتك اليوم. ابن البئر ناضبه
 من مغدق زاخر الدفاع هادره^(٣)
 وأين من جهده مستفعل فعل.
 من ملهم مشرق الإبداع آسرة^(٤)

(١) المنسر. منقار الطير.

(٢) جمع فاقرة وهى الداهية.

(٣) السيل المندفع.

(٤) أسر الله الإنسان خلقه.

أضفى على الأدب الريان طابعه

فلاح مصدر نور من مصدره

وكان مازفه للناس رائقة

من السلافه تندى عفو خاطره

إن ثار. قلت الرياح الهوج عاصفة

أوقر. قلت شكا صب لهاجره

منمنم النسخ يجرى فى دياجحة

من كل معنى شفيف الروح نادره

يخال من قربه للنفس إن له

نظائرا. وهو عال عن نظائره

تهفو العروبة من شتى مناكبها

إلى الرحيق المصفى من بواهره

فيا لها نشوة مجت مدامتها

أقلامه وهى ربا من محابره

خواطر الخلق تسقيها مشاعره

مستبهمات فتجلى فى مشاعره

فيرسل القول مانوسا فيحسبه

من صدقه المرء همسا من سرائره

بشارة أين: شوقى أين؟ هل لهما

من وارث واثب الإلهام ظافره

واحسرتا زال عن روض بلابله
 فأوحش الروض. إلا من عصافره
 وود كل نضير فيه مؤتلق
 لو قد تجرد من افواف ناضره
 بكي مع الأرز ساجى الورد وأنعطف الصف
 صاف يجلى حلاه عن ضفائره
 والسوسن الضاحك انغاضت بشاشته
 والنرجس الفضى أغضى من نواظره
 حزنا على ناهل منها عواظرها
 يديفها^(١) فى الزواكى من عواظره
 فابكوا على الشعر أسمى دره بددا
 وأسوا لناديه أقوى من عباقره
 بشارة القيم العليا يكيدها
 حران كل قصير الباع قاصره
 العجز أو شهوة البانى بلا أسس
 أو أنه الجذب فى أشقى مظاهره

(١) داف : مزج.

أو ثورة فى طوايا النفس حاقدة
 يصلى بها كل ضحل الجهد عاقره
 أو أنه قلق. والعصر مضطرب
 يمضى لكل سقيط^(١) السميت صاغره
 فهذه ذكر فى زيها خنث
 وذاك يخطر أنثى فى غد ثره
 وتلك لوحات معتل يخط بها
 مالوث الطفل عن ملتاث^(٢) خاطره
 من كل رسم جهيضم^(٣) غير ذى شية
 وكل نقش بغيض اللون نافرته
 وتلك قصة ذى عقل رأى سفها
 أن يعرى العقل فيهما عن مآزره
 يقول جددت. قل جددت فى هذر
 والفج يعرف فجا فى بواكره
 وزاعم إن صقل الشعر منقصه
 ووزنه ناقص أركان عامره

(١) السقيط الأحمق

(٢) الأليتات الأضطراب

(٣) الجهيضم المولود قبل مواعده

وأن علوى موسيقاه منتهك
 خدر العذارى الغوانى من حرائره
 الشعر ما قلت. لا ما قاله نفر
 عدوا على قدسى ماضيه وحاضره
 ثم استطلوا على الفصحى وحرمتها
 بآمر من نوى الضغن غائره
 صالوا مجاهيد فارتدوا وما بلغوا
 من فارغ الطود إلا سفح حاجره^(١)
 الله كرمها فاختارها لفته
 لمعجز محكم التنزيل باهره
 تبقى على الدهر تسنى فى مساجده
 نورا - وتنهل هديا عن منابره
 لا فن من غير قيد أو توائبه
 فوضى تطيح بمحض من عناصره
 والقيد إن كان فى فضل نجوت به
 كعفة المرء. قيد من كبائره
 يا شاعر الشرق فى أفياء جنته
 قم فاشهد الشرق فى غاشى مخاطره

(١) حاجر الجبل : قاعدته

قد بات لا تتراءى فى عزائمہ
 قواہ.. بل تتجلى فى حناجره
 وفى الأهازيج تجدى عن تضافره
 وفى الهتافات تغنى عن بواتره
 عجبت منه تغاديه توافهه
 فيستثار.. ويلهو عن مصائره
 قدما ريم الأفاعى فى بواطنه
 خلفا. وشهد المداجى فى ظهائره
 وانقاد للجهل واستهواه باطله
 فجرد الفضل عن عليا معايره
 متى يفيق؟ فما ذل ولا ضعة
 كهونه وهو مستخذ لواتره
 الدهر يوما.. والأيام. حاملة
 حظ الوجود جنينا فى سرائره
 لقد أرى والمنى ترضى وإن خدعت
 طغاوة النور تسرى فى دياجره
 رحلت عنه وعن عصر هوى خلفا
 فى عالم فخره كبرى جوائره
 يهنئك أنك ناج من برائنه
 نفسا وأنت ناء عن أظفره

طغى الضلال به حتى لأوهمه
 إن الضراوة ضرب من دساتره
 الحق للباطش الأقوى وإن سفرت
 نياته عن خسيس الأثم غادره
 ينقض ذنبا فما خلق برادعه
 ولا اجتماع على شكوى بضائره
 والأمر للجاهل المثرى بعسكره
 والحكم أهوج فى أيدي جبابره
 وبات حكامه باسم الشعوب كمن
 سام الزمان هوانا من قياصره
 منهم قبيل^١ وأن أبدى محاسنه
 ففى ضمائره ما فى ضمائره
 وذاك يبرم عهدا. ثم ينقضه
 وذاك ينفث سما عن منابره
 تخاله سائس الدنيا وقاهرها
 وهو المضرس فى أنياب قاهره
 يانكسة العصور لا ولا ذم
 أليس حَمَلانَه صرعى كواسره
 لم تشف نزعته السفلى حضارته
 بل زاف منها شعارا فى حواضره

حظ العروبة فيه حظ ممتهن
 فى يتمه بين جافيه وزاجره
 متى يطالعنا عدل الزمان متى؟
 وللزمان قصاص فى دوائره
 إن ينصر الله طاغوتا إذن فلقد
 استغفر الله اغرى شر كافره
 لبنان يا حجة للعرب. دامغة
 بهتان كل دخيل الحقد واعره
 وكل ساع بما يغريه من تهم
 يبثها فى الدوى من عفاثه
 إن يبتعث فتنة الأديان سقت له
 تسامحا فيك يسمو عن نظائره
 أو يذكر الحكم. قد القمته حجرا
 فشعبك الحر قاض فى مصائره
 أو يذكر الميل عن نهج الحضارة لم
 يعجزك دفع غوى عن بوائره
 حضارة الشرق تجلوها يمازجها
 مارقرق الغرب فيها من بصائره
 ما بين طوديك رففت نهضة عمم
 أجد شعبك فيها مجد غابره

وعزة الشعب ليست فى تكاثره
العقل أجدى عليه من تكاثره
لبنان يا فخر هذا الشرق عشت له
فى ركب حاضره إنسان ناظره
يا صانع الحسن فى أبهى وسامته
ورافع الوعى فى أسنى منائره
من كل غيداء ريا من صباحتها
وكل يقظان رحب الوسع ثامره^(١)
وباعت الأدب العالى برشح من
فصحاها فى عقبى من مآزره
وناشر الروح والتهديب فى لغة
صحيحها طم دهرا فى مغادره^(٢)
سعدت. كم لك فى أيد مقبلة
على القريض أضاءت فى جواهره
فصاح فى رباك الخضر ذو طرف
ونائح يتغنى فى مهاجره

(١) ثامر الشجر: الثمر.

(٢) المغادر: الكيوف.

يقول وهو زغيد العيش فى بلد
لم تعرف الأرض أبهى من حواضره
لبنان أين عليل من نسائمه
النشوى. وأين حبيب من دساكره
وأين حور حسان من مهائره^(١)
تشرفن فى حالات من سوامره
وأين أئداء تفاح بدغدغها
طل الصباح فتزهو فى تباشيره^(٢)
وأين ماء كراح الخلد تسكبه
عيونه النجل^(٣) من صافى مصادره
نأى عن الدار فانهلت روائعه
عصارة القلب ماجت فى محاجره
لبنان.. لست المعزى إنها أمم
فى الشرق تأسى له فى ناى شاعره
لم يظوه الموت. أن الموت أعجز من
أن يظوى النور يسنى فى سوائره

(١) جمع مهبيرة وهى حسناء يغالى فى مهرها.

(٢) تباشير: الصباح: أوائله

(٣) النجل: الواسعة

كم مائل هو ميت فى مقاصره
 وراحل هو حى فى مقابره
 هذى نفاثة محزون أخى مقه
 يذيبها عبرات من مشاعره^(١)
 بادلته الود مخضلا وكننت له
 فى جرحه اللطف ندى وقد ناغره^(٢)
 والله ما روعت مصر وقد منيت
 بكل خطب شديد العرك جائره
 بمثل مالتقيت يوم انتقالك من
 هول رماها بوادى البرح ثائره
 اهرامها نكست هاماتها جزعا
 واجهش النيل عن مسك هامره
 فانهب كما مال قرص الشمس ضم إلى
 شكران ذاكره.. إكبار شاكره

(١) المقصود قصائده السائرة على كل لسان.

(٢) إذا اغتلى الجرح فهو ناغر

القصائد التي قيلت في رثائه

عزيز أباطة

شعر صالح جودت

ما عزائى فيك يا خير عزاء
منذ أن غاب أمير الشعراء
لم تزل تسعى إلى سددته
بعد أن عز عليها الأولياء
فتسـنمت إليها دائبـا
صيب الإلهام موهوب العطاء
تملاً الدنيا نشيدا رائعا
يتلقى من فم الدنيا الثناء
وتصوغ المسرحيات التي
لبس المسرح منها الخيلاء
وتقص السيرة الحسناء في
خير زلفى لأمير الأنبياء
فاض منك الشعر، رومى الشجى
بحترى الروح، شوقى البناء
طاوعتك الشاعريات التي
لم تطع فى الشعر إلا الأمراء

إنما الشعر المصفى دولة
لم يزل فيها السراة الكبراء
لم تزل لها انقلابات ولا
هزها سيف ولا شقت دماء
غير أن المحنة الكبرى بها
ما جناه المحدثون الأدياء
أنكروا الأوزان فى روعتها
والقوافى البلبليات الغناء
فى زمان عابث يطربه
هذر المرء ولغو اللقطاء
سوف يبقى الشعر فى سفر العلا
ويولون مع الريح جفاء
يخلد الشعر على الدهر كما
تخلد الأديان بعد الأنبياء
انما يمكث فى الأرض الذى
ينفع الناس ولا يبقى الهباء
يا عزيز الشعر همى أننى
لم أشيعك وقد حم القضاء
جاءنى ناعيك فى مغترب
أتشهى فيه من مصر الهواء

عليه يحمل من أنبائها
 نفحة منك وبشرى بالشفاء
 بعد أن فتك فى حزن الضنى
 واهن الشريان ملهوف الذماء
 فإذا النفحة شجو وأسى
 وإذا البشرى حداد ورثاء
 فنزفت الدمع حتى خاننى
 فتسولت دموع الغرباء
 قلت من شعرك فاستبكيتهم
 وأجل الشعر ما يوحى البكاء
 قلت من أناتك الحرى على
 حرة منزلها دار البقاء
 لك فى فرقتها ملحمة
 أصبحت سلوى الأيامى التعساء
 هى لو تملك أن تسمعها
 شقت القبر وخفت للنداء
 عشت فى محنتها مضطربا
 نابغى الليل مسود الرداء
 ثم مر الزمن الآسى على
 جرحك القاسى فأرقا وأفاء

وتفتحت على الصوت الذى
يوقظ القلب ويشفى البرحاء
حين هشت لك أنفاس الهوى
فتنفست بهن الصعداء
وتعطرت بنيسان المنى
وتقشبت بألوان الرجاء
فإذا ليلك بالنور اكتسى
وإذا قلبك بالحب أضاء
وإذا من كان يغلو فى الأسى
هام بالصبوة حتى الغلواء
وبنيات على فجر الصبا
يتأزرن بأحزان المساء
لم تزل فيهن من يوم النوى
لوعة اليتيم وتذكار العناء
قلن ما خطب أبينا بعد ما
غاله فى أمنا عصف القضاء
فبكاها وبكاها ومضى
حزنه أمثلة للأوفياء
فتوسلت لهنن ارحمننى
يا بنينى، أن الحبيب داء

يابنياتي ممن ذاق الهوى
 قدسيا، لم يجد عنه غناء
 إن رجوتن لنفسى راحة
 فالهوى والشعر سلوى وعزاء
 أو تمنيتن لى مجدا، فما
 مسلكى للمجد، والقلب خراء؟
 أو تلمستن بعدى تركة
 ليس بعد الشعر عز وثناء
 عمركن الله، ماشدت الهوى
 بيمينى، غير أن الله شاء
 يابنياتي، ممن روح الهوى
 يولد الشعر ويحيى الشعراء
 يابنى العصر الذى نحيا به
 وهو علم وابتكار وذكاء
 لا تقولوا شاعر مات، وما
 قيمة الشاعر فى عصر الفضاء؟
 قيمة الشاعر فى أمته
 أنه يفتح أبواب السماء
 أنه يزرع ألوان المنى
 أنه يبدع ألحان الغناء

أنه يجعل للعمير شذى
أنه يمنح للروح الضياء
أنه يعزف موسيقى النهى
أنه ينشر فى الأرض الصفاء
أنه يحنو على أوطانه
أنه يلعن ظلم الأشقياء
أنه بالشعر يهدى قومه
للطريق الحق والرأى السواء
أنه بالشعر يروى للورى
سير النصر وأمجاد الفداء
أنه التاريخ، يبقى صادقا
أن روى التاريخ زيفا وادعاء
أنه الحاضر يحيا نابضا
وطنى الشدو قومى الدعاء
أنه المستقبل الحلو الذى
ينشد الخير ويدعو للرخاء
أنه لسولا رسالات الهدى
كان فى أمته كالأنبياء
فى رحاب الله من كنت له
أقرب الأخدان نهجا وانتماء

لم تنزل فى ناظرى من سمتہ
قائمة مرفوعة بالكبرياء
ومعانة يداريها الرضا
واحتمال يتغذى بالإباء
وتحدد لصروف عاشها
يحمل المحنة فى غير انحاء
فى زمان نحن أحسناله
ولقينا من سنمار الجزاء
قل ما سر به، لكنه
كان ما أكثره فيما أساء
إن قضى الأحرار فيه فلمهم
فى رحاب الله أجزر الشهداء
يا أبى، بل ياخى، بل يا أنا
أنا من مات، فللشعر البقاء

عزیز الشعر

شعر سعید عقل (بیروت)

شعر ولا أنت؟.. فی بردی انضی ألم
عملاق مصر، تطلع، وانحنی هرم
راثِ انا الیوم؟.. دعنی من رثا وبکا
نار ببالی وفاء كنت اعترزم
قالوك تكمل خطأ؟ ويحهم خطلوا
فی غفلة الوحی، أنت الطور والكلم
الشعر بعدك صار الشعر، رده
من رأسه فوق، من لم یغره غنم
اثنان أهواهما: نبل بشعرك لم
یتعب ، ولبنان منه تتعب الأمم
سكری بشوقی أو إلى غیر ذی شیم
وقول شوقی بزحل^(١) السكر والشیم
هنا الهوی شد بین الأمیین، هنا
فی الشرق ، ما نسمت قبل الهوی نسم

(١) إشارة إلى قول شوقی:

أن تكرمی یا زجل شعری أننی نكرت كل قصيدة الاك
أن الخيال بدیعه وغریبه الله صاغك والزمان رواك

لكن شعرك أنت، الشعر يعبده
 معى، ونغوى انا والليل والنجم
 ما أمروك؟.. أخال التاج ضللهم
 وجاء جبهتك السماء يستلم
 حملت غصنا من الأرز، استظل به
 أو رعمسيس أو الوقاد من عظموا
 أو من نماهم ثرى لبنان، مبتدع
 البداع: من نثروا الدنيا ومن نخلحوا
 به ألف جبيننا لا الشموخ حكى
 أغلى، ولا العود وفاه ولا النغم
 طوقت جيدي بأنى «عقل أمتنا»
 يعل من سحرى «الإثبات والهيء»
 كلامك السيف، ها بالسيف ترسله،
 والاصطكاك سكوت عنده القلم
 بديع رصفك، فيه أنت: قامتك
 الغيناء، صدرك، صدق العزيمة: الشمم
 وفيه من أسرة قلت الرماح نمت
 قوما، وقلت بخيل طارت الهمم
 مصر تنشى. ما القوقاز أنبتة
 منها الحضارة، منه النبلة الحكم

ما الشطر من بيتك المألآن غير صدى
لكرة عبرها الأعداء تنهزم
حتى اذا رد شطر آخر لعت
أهزوجة النصر يغوى فوقها العلم
أما القصيدة، مما رحلت عمره،
فالبرج ماد كمن بالأفق يصدم
يقول إن ابتها لا سر فتنته
وأن دفا على باب السما الحكم
غنيت لبنى، البنى غير من هجرت
لتسكن الدمع فى عينيك ينسجم؟
لنجمة الصبح ودت لو تكون لها
بديلة وعليها الشعر ينهدم
واريتها لا بترب، بل بورد ضحى
والحب حبك ورد بالشذا برم
وفجر الدمع فيك النبع مصر، ردى
نيلا من الشعر يانبيلا هو الكرم
بمصر حببت الدنيا فكيف اذا
راحت على الريشة الخضراء تضطرم؟
أقول: كتب إلى نجم تشد فطر،
حدوث، والعب كما لم يلعب القدم

عملاق مصر، قوافيك الكبار بنا،
بنبلها مايزال الأرز يتسم
ومن أنا لأرد اليوم بعض ندى؟
صم قوافى فى رد الندى بكم
إن شاعر هام بالنيل انتشت قمم.
فى أرضنا، أو تصبى مادت القمم
مصر هى المجد، كان المجد مذ طفرت
فى الببال، فالكون أذن بعدها وفم
أو لو النهى الصيد نادتهم هياكلها
وعلمها رقد الصيد الأولى علموا
غاو بها شرف الانسان، ما خذلت
عصرا، وغاو بها ذو الريشة العرم
أن ضامها الضيم مس الخالقين دنى
أو نالها الظلم راح الحق يظلم
لبنان نحن.. وها نحن الشهود لها
ندين يوم انتصاف، ليس نتنيم
الحب نحن شرعنا الحسن نحن بدعنا
البعض نحن قطعنا أنه العدم
جبيل قالت بقاء النفس واكتشفت
ربا أبى لقضاء السيف يحتكم

الليل لولا سراها غربة قتلت
والشمس لولا هواها وهى من وهموا!
بلى، جراحات مصر فى مضاجعنا،
فى الروح يسخى بها، فى العظم ينثلم
فى الريح فى غضبات الغيظ، فى غدنا
فى مبتغى ما ابتغى الأبطال إن هجموا
ما لم تزن مصر وزن الحق يبق دم
على الضمير ويبقى أن يراق دم!
أطلت منك على التاريخ، رنحنى،
همى كما الضوء فى بالى، كما الديم
ويعطر البال أن يمسك عطر يد.
مست بنفسجة أنفاسها حرم
لم لا؟ وفى القصص العالى الذى نسجت
غزارتاك استجدت سحرها النظم
غدا الهوى بدعة، مرا ببال هوى
وسكر عقل على القرطاس يرتسم،
وآيه طرفت حتى ليرشقها
غيان إن أنا ضليل ولى جرم
بالكأس أفديك، بالدنيا، بساجعة،
بلوز نيسان للزينات يبتسم،

بالشعر بالمنتهى بالمجد أشعلنى
بحط عينى بعين الحق أنتهم
حتى إذا لاح لى أنى وهمت همت
منى الشجون كمن أفلاكها السدم
رفيق شطرة عمر، ذاكر ولها
بشعر مطران والألباب تحتدم
اسمعتك المرتجى. ما كان؟.. دع خلقى
للصمت، لا شرف إلاك، لا ذمم!
مازلت منها كما بوح النسيم لمن
من النسيمات تشقى وهى لا علم:
مرى بدارتنا يا طفل وانحطم
على بساط من النسرين ينحطم
بهديك الريح تنأى، أنت مرتحل!
بقدك الشوك يدمى، أنت منتقم!
إن كان بالهزج من صبحيك لا أمل
فعند خُصرك لم لا يصدق الحلم
حتى إذا يندرى شعر وكننت غوى
تململين، وآه القول والقسم
تهم شمس بأن تغشى فأمنعها:
ضيعى معى، ياضياعى، وأحل، يا ندم

وتسألين : لمن سهدى ، بمن وجهى ؟
ياقاطف الشمس ، أكمل أو أنا الرمم !
وننتهى ننتهى فى قبلة ولهت
وفوق يغمز فينا بلبـل رنم
شئ عن الشعر هذا ، استله كلف
بالشعر ، أم سكر صب ليس يحتشم ؟
فلنبقه بيننا سر الكئوس ، بها
يمر هاو فيدرى أنه الجمم
عملاق مصر ، إذا أعوزت فى خلد
فضم من خلدنا ما شاءت الضمم
من زهر لبنان خذ عرشا ومن قيم
لا زهر لبنان منان ولا القيم !

فى رثاء عزيز الشعر

شعر: عبد الكريم الكرمى
(أبو سلمى) فلسطين

وحملنا من فلسطين الجراحا
ألسنا فى المهرجانات فصاحا
وشطايانا اللواتى انتثرت
قد عصبتها وشاحا فوشاحا
جلت الثورة أيام اللقا
جبهات، تفضح الشمس، صباحا
وغدت أشعارنا صامتة
أنها فى صمتها أمضى سلاحا
يا فلسطين أتيناك على
صهوة الجرح، رعودا ورياحا
تقف السمراء فى ساح الوغى
تتحدى الأسمر الندب كفاحا
حسبوا أن رماحى انكسرت
إن لى فى كل ميدان رماحا
كلما حطم لى الدهر جناحا
مصر مدت لى على الأفق جناحا

شيع الشعر عزيزا وبكى
 خلقا فيه ونبلا وسماحا
 لا عروس النيل فى موكبها
 لا ولا موكبها زف الملاحا
 لا الليالى خافقات بالسنى
 لا ولا النجم على الموج استراجا
 لا الرياحين على الشط زهت
 لا ولا الورد بسر العطر باحا
 وانثنى الفارس عن رايته
 وارتمت تملأ دنياها نواحا
 يا عزيز الشعر من بعد النوى
 لم نجد للشعر فرسانا وساحا
 الحروف العربيات انطوت
 والهجينات تصدرن المراحا
 هانت الأنفس فالشعر غدا
 مرتعا - مثل بلادى - مستباحا
 أرضنا أرضك يا مصر وقد
 بسطت فوق ظلال الخلد راحا
 ونسيمات الربى ما اختلفت
 والنمير العذب مازال قراحا

و غرسنا الشوق فى كل ثرى
 ورعيناه غمدوا ورواحا
 وسقيناها معا، من دمعنا
 وغذوناها إباء وطماحا
 وحد التاريخ فيما بيننا
 والدم الحر الذى روى البطاحا
 فتراب ومصير واحد
 أين من يقطع أوشاجا صحاحا
 كل يوم قطعة من كبدى
 تتشظى وبها الموت أطاحا
 لى فى كل المناحات أخ
 لم يجد قبرا ولم يلق أقاحا
 وهوى السيف المدمى عاريا
 دون غمد، والردي رد الجماحا
 لم تشيعة بقايا أدمعى
 لا ولا توديعه كان متاحا
 والرفات المستجيرات ألم
 تسمعوا منها عويلا وصياحا
 شهداء قد كساهم ربهم
 نضروا روحا وردنا وصياحا

وهم فى كل درب شعل
أطلعت من ظلم الليل صباحا
ظل لمن أصفوا على الذل الا
بئس من كان عن العز أشاحا
باسم شعبى حكموا لكنهم
ظلموه ثم يرجون فلاحا
تاجروا باسمى وبؤسى ودمى
ثم باعوا وطنى بيعا سماحا
أيها اللاهون بالميسر
لا تجعلوا أرض فلسطين قداحا
ذرة من وطنى فيها الدنى
أين من يبغى بديلا أو براحا
أى فك لبنى العرب إذا
لم يفكوا من فلسطين السراحا
أيها الحر الذى فارقنا
أن للقيد على الأرض اجتياحا
أيها الصداح ما الروض إذا
كنت لا تملاً جنبه صداحا
أيها الشاعر ما الحفل إذا
كنت لا تسقيه من شعرك راحا

لا يضيئ النور فى الجمع إذا
لم يكن منك الجبين الطلق لاحا
مثل زيتون بلادى، خالد
شعرك الغض اخضرارا واتشاحا
يا عزيز الشعر مازلنا على
عهده، نعتنق الود الصراحا
ايمنما سرنا، على أعطافنا
عبق من شعرك المعطار فاحا
أنت دافعت عن الحرف فلم
يهو فى الوحل ولم يولد سفاحا

إلى عزيز أباطة

شعر: محمد التهامي

نيام العزيز ولم ينم سلطانه
بل راح يستبق الحياة بيانه
والشاعر الخلاق يغير عمره
فيطول فوق ذرا الوجود زمانه
تتواكب الأجيال دائبة الخطا
وتظل فوق رءوسهم أوزانه
يتفياون من الهجير ظلالتها
وتضمهم زمن الربيع جنانه
وإذا استباح الزمهرير حياتهم
فملاذ دفنهم الرحيب حنانه
وعلى دروب الحب يلمع صوته
فتضىء فى ليل الهوى الحانه
وإذا جراح العاشقين تناوحت
واسى جراح قلوبهم تحنانه
وإذا تفرق شملهم وتناثروا
ضمت شقات جموعهم أحضانه
وإذا استطال الليل فوق ربوعهم
يدعو إلى الفجر القريب أذانه

وإذا تهاوى للضلال فؤادهم
 يهدى إلى رحمانهم إيمانهم
 وإذا تنكبت الطريق جموعهم
 يومي إلى النهج القويم بنانه
 وإذا دهى الأوطان كيد عداته
 عزت بظل نشيده أوطانه
 وإذا استتنام الغافلون لظالم
 لذعت مضاجع نومهم نيرانه
 وإذا وحوش الغاب سيطر حكمهم
 غلب الوحوش وردها انسانه
 هذا تراث الخالدين وبينهم
 يأتي العزيز ويستقر مكانه
 لم يعرف القول الجزاف بل انتقى
 فأضاء في صدق الشعور جمانه
 وأقام في حلو الحياة ومرها
 ما اهتز في وهج الصراع كيانه
 زادته في الأقبال حلو تواضع
 حين اکتوى بغرورهم أقرانه
 ورأته عند البأس أكرم فارس
 يضيء بليل الحادثات سنانه

ويقول ما يلقي بقدره ملهم
ما خان أعماق الشعور لسانه
فى حبه ووفائه أسطورة
نطقت بصدق حروفها أشجانه
وأدارها سفرا يصوغ مداده
قلب الحبيب تذيبه أحزانه
أناته الحرى سقت أكبادنا
جمرا عليه شواظه ودخانه
واشدد مصقول المشاعر قادرا
يجرى وراء غباره اخوانه
فله بدنيا الشاعرين صدارة
ووراء طلعتته مشت فرسانه
يرتاد آفاق البيان مظفرا
فيه فكل فنونه ميدانه
يلقى كريم القبول فى ميزانه
فيزيد فى وزن العلاميزانه
قد روض الفصحى وأحسن صوغها
فأضاف فى أمجادها احسانه
وأتاح للشعر الأصيل مكانة
عليها رست بسمائها أركانها

فالمحتوى فيه النبوغ أصالة
وعلى مفاتنه استوى بنيانه
وسرى الشعور الحى فى أنفاسه
نغما يهز المنتدى فتانه
والشاعر الفنان فى أعماقه
سر انوجود وفى يديه عنانه
أوتى من الالهام قدرة شاعر
يسع الوجود ومن به وجدانه
فيرى بعين الملمهين حقائقا
خفيت وتسمع صمتنا آذانه
ويحس فوق الحس ثم يرده
شعرا يسير بسحره ديانه
يسقى من السحر الحلال نفوسنا
ولو أنه أوحى به شيطانه
فنهيم نذعن للذى يوحى به
ويظل يسعد قلبنا اذعانه
هذا دعاء الفن عز نداؤه
هذى قيادته وذا سلطانه
إن كان للشعب العريق حضارة
كتب الحضارة كلها فنانه

عزيز العرب

شعر: مبارك المغربي

(السودان)

لك منى على المدى أعظامي
يا مقيما بقلبي المستهام
يا مطيل الغياب فى العالم الرحب
بعيدا عن عالم الأوهام
لك منى ذمء نفسى يا خلى..
وقلب قد صار بعض حطام
لم تبزل روحك الزكية تهدى
بلجة الوحى للنفوس الظوامى
لم يزل طيفها يطل علينا
كل حين.. فى رقة الانسام
عبق كالصبا يضوع شذيا
كنت فينا أو صرت بين الرغام
لهف نفسى. أما أودع خلى
ونجى.. وما أبسل أوامى؟
غائب ماله الغداة رجوع
تاركا صحبه لسذل المقام

لزمان مدى الحياة عبوس
وقلوب على الدوام دوامى
أى رزء أشد من ذلك الرزء
وأقسى من تلكم الآلام!
ايه يا مصر: يا مراح خيالى
ورؤى خاطرى وملقى غرمى
كيف أغدو على ثراك غريبا
بين أهلى ومجتلى احلامى
كنت ألقاك مسعد الروح والقلب..
فمالى ألقاك دون سلام؟
وجهك النضر! ماله حال جهما
بعد ما كان مشرق الابتسام؟
هدنا الحزن مذ فقدنا «عزيزا»
فى كثير من المعانى الفخام
فى الندى فى النقاء. فى البر بالصحب.
وفى خلقه النبيل السامى
فى سماء الخيال فى الأب الفذ..
وفى موكب العلا والتسامى
عبقرى زها بمذهبه الشعر
ونادى له بلا احجام

صانه ممن أذى الجديد
 زاهرا خالدا على الأعوام
 لن يضير التنظيم محض كلام
 قد أتى مبهما بغير نظام
 أيهذا الذى تولى كريما
 مسرعا فى خطاه دون زحام
 أين ألقاك كى أبثك ماعندى..
 وأشكو إليك حر هيامى
 سوف ألقاك فى محيا «عزيز»
 صورة منك فى الشباب النامى^(١)
 يا شقيق الفؤاد.. يا توأم الروح..
 ويا ذاهبا بأقصى مرامى
 أنا ما عشت أذكر الخير والفضل
 وفيض الشعور والإكرام
 لم تزل تزدهى «عصارة قلبى»
 بعد ما زنتها بأغلى وسام^(٢)

(١) عزيز الاسم الذى أطلقه الشاعر على ابنه وفاء للفقيد العزيز.

(٢) عصارة القلب: ديوان الشاعر الذى تفضل الفقيد بتقديمه عام ١٩٥٤.

الأمس مضى «بتوتى» «وبرى»

بين نفح الربى وهمس الغمام^(١)
وليال كأنها أرج الخلد
تجلت فى المقرن البسام
طالعتنا «الخرطوم» من وحيك الثر
بسحر يفوق سحر المنام^(٢)
كم لقاء لنا على ضفة النيل
وشط «الجزيرة» المترامى^(٣)
بين سحب شجتهم ندوة الشعر
فصاغوا شوارد الأنعام^(٤)
ذكريات تعيش فى القلب رمزاً
لصلات تبقى مدى الأيام
يا رسول القريض - يا شاعر العرب
وحادى البيان والالهام

(١) تربي وبرى والمقرن: أماكن معروفة فى ضواحي الخرطوم وبها كرم الشاعر صديقه عند زيارته الأولى للسودان عام ١٩٥٥.

(٢) الخرطوم: القصيدة التى حيا بها الفقيد السودان فى زورته الثانية عام ١٩٥٧.

(٣) الجزيرة الموقع المعروف بالقاهرة وبها دار الفقيد بالزمالك.

(٤) إشارة للندوة الكبيرة التى أقامها الفقيد للشاعر عام ١٩٥٤ ودعا إليها أساطين الأدب فى مصر.

ياسليل الوفاء يا عسترة النبيل
وصنو الحجى ونسل الكرام
ليتك اليوم بيننا تتملى
فى صمود الرجال والاقدام
لترى العرب فى مصافحة المجد
خفاقا وفى نداء الوئام
لترى النيل نضر الله واديه
طروبا يتيه بين الأنام
فالشقيقان بعد طول التياع
واشتياق.. تعانقا فى التئام
ذاك يا صاح ما دعوت إليه
فاستجابت له عرى الأرحام
إنما نحن كلما جد جد
لترانا أوفى الورى بالذمام
نحن رمز النضال فى الموقف الضنك
وفى غمرة الخطوب الجسام
يا أخا السود والمروءة والبذل
سقى قبرك الغمام الهامى
نم هنيئا فقد غرست ثمار المجد
والمجد غرس كل همام

لم يغب من أعاد للضاد ما ضيها
وللعرب عزة الاسلام
من قضى العمر فى اللجوء الى الله
بأعماله الكبار العظام
رب هبه الرضا وأغدق عليه
فضلك الجم فى أبر مقام
وسلام عليه فى جنة الخلد
حليف الهناء والإنعام



أبي وأنا وابنتي أمينة في المعادى عام ١٩٦٨

١٣٣١ هـ سنة الهجرة والخطبة
والإمامة توفيقاً لشيخنا
الشيخ





أبي يستضيف في بيته ملك ليا وزوجه بعد ثورة ليا



أبي يستضيف الأمير عبد الله الفيصل في جدة

فهرس

- أبى عزيز أباطة ٥
- مختارات من شعره: ١٠٧
- سنوات عشر ١٠٧
- بيع العمر ١١١
- ذكريات الطفولة ١١٣
- تسبيح الذبيح (١٩٥٨) ١١٥
- مهاده إلى أم كلثوم ١١٧
- المولد الشريف ١١٩
- الرفيق الأعلى ١٢٢
- من رواية الناصر ١٢٦
- بغداد ١٢٧
- بشارة الخورى ١٣١
- الأخطل الصغير ١٣٣
- القصائد التى قيلت فى رثائه ١٤٦
- لقاطات من حياة عزيز أباطة ١٧٥

الدين والحضارة
دكتور محمود همدى زقزوق

العدد
القادم

١٩٩٨/٧٨٤٤

رقم الإيداع

ISBN

977-02-5583-1

الترقيم الدولي

١/٩٨/٢٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)